عبد المنعم قنديل

لماذا نتزوّج



دار الفكر
عمّان





مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

لماذا نتزوج



عبد المنعم قنديل

لماذا نتزوّج

دار الفكر
عمّان



محتويات الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

أحمد اللّه تبارك وتعالى على فضله واحسانه، وأصلى وأسلم على نبينا ورسولنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه. وأعوذ باللّه من شرور الرأي، وزلة العقل. فهو نعم الهادي، ونعم المعين.

وبعد:

فإني أقدم هذا الكتاب للرجال والنساء جميعاً. المتزوجين منهم والعزاب. الذين يحسون السعادة، والذين يشعرون بالتعاسة. الذين تزوجوا واستقروا في كنف الأسرة، والمقبلين على الزواج، الهانئين بالحياة الزوجية، والشاكين منها، أصحاب القلوب الفياضة بالحب، وذوي القلوب الجافة من العواطف. الذين يؤثرون البيت على ما عداه، والذين يهربون من بيوتهم الى المقاهي والأندية والشوارع، الذين يبنون أسراً سعيدة، ويقدمون أجيالاً طامحة، والذين يهدمون أسرهم، ويخربون بيوتهم بأيديهم، الذين يجدون في الزواج الجنة الموعودة، والذين يئنون تحت وطأة الزواج.

في هذا الكتاب يجيب المؤلف الأستاذ عبد المنعم قنديل عن

كل سؤال يخطر بخلد الرجل أو المرأة بالنسبة للحياة الزوجية، موثقاً آراءه بأدلة من الدين، لكي يعرف الرجل عيوبه فيعالجها، ولكي تكتشف المرأة نقائصها فتداويها. ومتى عرف كل من الرجل والمرأة عيوبه ونقائصه، واستأصلها وتخلص منها، سارت الحياة الزوجية هادئة مستقرة، تشرق بالحب، وتعبق بالسكينة، وترفرف عليها الطمأنينة والأمان.

ونحن اذ نقدم للمسلمين هذا الكتاب، فانما ننشد اقامة أسر سعيدة، ومجتمع خال من المشكلات، ونسهم ـ قدر طاقتنا وجهدنا ـ في اضافة فكر اسلامي جديد مستنبط من أحكام الدين والحياة العصرية بكل همومها ومتاعبها، راجين اللّٰه عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

عبد اللّٰه حجاج

الأربعاء ٤ من جمادي الأولى ١٤٠٦ هـ
١٥ من يناير ١٩٨٦ م.

لماذا نتزوج

قد يبدو غريباً أن نسأل أنفسنا، أو يسألنا غيرنا: لماذا نتزوج؟ لأن الزواج نداء الفطرة فينا قبل أن نبدأ مرحلة البلوغ، ونداء الغريزة بعد أن نبلغ هذه المرحلة..

وهذا النداء كما هو صادر من أعماقنا منذ الطفولة، صادر من أعماق آبائنا وأمهاتنا.. وكل من حولنا من الأقارب والأصدقاء..

ولهذا ظلت شجرة البشرية نامية مزدهرة.. تتكاثر فروعها وثمارها.. ولولا الزواج لجفت هذه الشجرة، وأقفرت الدنيا من الحياة والأحياء..

ولأن الزواج له هذه الأهمية البالغة، ولأنه المادة التي تتغذى بها شجرة الانسانية فقد تفرد بمكانة خاصة بين رسالات السماء..

النبيون تزوجوا.. لأنهم المثل والقدوة.. ودعوا الى الزواج، لأنهم يريدون أن ينشئوا مجتمعات قائمة على الطهارة والعفة.. « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ».

وحتى في الأزمنة التي حاد الناس فيها عن منهج السماء، ظل الزواج سارياً في أعماق الناس، يؤلف بين قافلة البشرية، ويربطها بوشائج من الحب والتعاون..

فلو سأل سائل: لماذا نتزوج؟ أجابته فطرته، وردت عليه كلمات السماء..

لأن كلاً منا همزة وصل بين الماضي والحاضر . .

جاء امتداداً لآبائه وأجداده . . وسيكون امتداداً لأبنائه وأحفاده . .

ومن هنا كان للزواج جلاله وقدسيته . لأن بقاء النوع الانساني مرتبط به وقائم عليه . . ولأن نهر الحب تمده روافد الزواج .

فكل متزوج له مكانه في شجرة الانسانية . . والاسلام حريص على أن تظل هذه الشجرة نامية مورقة مثمرة . ولهذا أوصى بالزواج من المرأة الولود، أو فضل الولود على العاقر . .

والزواج ليس ارتباط رجل بامرأة مجرد ارتباط . . وانما هو في حقيقته امتزاج روحي . . أول خطوة فيه هي الحب .

ولكن الحب يختلف حسب طبائع وأمزجة المتزوجين . .

فهناك من يحب الجمال الظاهري فحسب . . تبهره ملامح المرأة، وتأخذه مفاتنها . . وهذا أقل أنواع الحب شأناً . . بل ان معظم الزيجات الفاشلة . . يكون سببها حب الجمال وحده . .

لماذا؟

لأن المرأة بعد الزواج تطرأ عليها تغييرات كثيرة من الحمل والولادة والرضاع . . تذهب ببعض جمالها، أو تطمس الكثير من معالمه . . وهنا تنطفيء جذوة الحب في قلب الرجل . . لأن المرأة التي استولت على مشاعره بحسنها وفتنتها فقط، تجردت من هذه الميزة . . وأصبحت تتساوى مع الأخريات في المظهر والشكل . . ولم تعد تلك الأنثى الساحرة الباهرة التي تلهب العواطف، وتثير الغرائز، وتحرك المشاعر والوجدان .

وهناك من يحب امرأة لثرائها العريض أو دخلها الوفير. . فاذا تخلى عنها الحظ، أو عاندها القدر، وفقدت ما تملك من مال وثروة. . تفقد في الوقت نفسه حب الرجل. . لأنها كانت تجتذبه ببريق المال والثروة، ولم يعد ثمة ما يجذبه اليها، ويربطه بها. . ويغريه بالاستمرار معها.

وهناك من يحب امرأة، لأن أهلها من ذوي النفوذ والسلطان. . والنفوذ والسلطان عرض زائل. . يذهب الحب بذهابهما، وتنحسر عن المرأة أضواء العزة التي كانت تحيط بها، ويتلاشى حبها من قلب الرجل، لأنه كان يحب فيها النفوذ والسلطان. . والجاه والسؤدد. . والعظمة والجلال. .

الحب صورة كثيرة ومتعددة ومتنوعة. . ولكن الحب النابع من التدين هو الذي لا يزول ولا يحول. . لأنه مرتبط بتعاليم السماء. . وهي التعاليم التي جعلها اللّٰه قناديل على طريق الحياة. .

ومن هنا نفهم الحكمة من وصية الرسول ﷺ بالزواج من ذات الدين. .

واذا كان الزواج شركة موثقة، فإن الحب هو جوهر الوثيقة ولبابها. .

فنحن نتزوج لأن الزواج فطرة نحن مفطورون عليها. . ومن لم يتزوج فقد خالف الفطرة الانسانية. .

ونحن نتزوج، لأن الحب يدفعنا الى الزواج. . سواء كان حب الجمال، أو حب المال، أو حب النفوذ والسلطان، أو حب التدين. .

المهم ان الفطرة والحب عنصران متلازمان في الزواج . .

والزواج رباط أبدي لا ينفصم الا حين يفقد عنصر الحب . . وفقدان هذا العنصر أبغض الحلال عند اللّه . .

ولذلك حرم الاسلام زواج المتعة، أو الزواج المؤقت . . لانعدام الهدف الحقيقي من الزواج، وهو الحياة الآمنة المستقرة . . فالرجل ملاذ المرأة . . والمرأة سكن الرجل . .

كل منهما له دور يتعادل مع دور الآخر . . وان كانت أفضلية الرجل نابعة من توليه قيادة البيت بحكم فطرته وتكوينه، لا بحكم أنه المنفق على البيت . .

فالمرأة قد تكون ذات دخل مساو لدخل الرجل، وقد تكون ذات ثروة لا يملك مثلها الرجل . . ولكنها تقف في المرتبة الثانية بعد الرجل . . لأن تكوينها لا يؤهلها لكثير من أعمال الرجال . .

فإذا طلبت امرأة مساواتها بزوجها، لأنها تنفق مثله، أو تعلمت مثله، فإنها لا تدري أن طلبها هذا حكم على أنوثتها بالزوال . .

واذا زالت أنوثتها . . فماذا بقي لها بعد ذلك؟

لا شيء!!

تصبح لا هي أنثى، ولا هي رجل . . ولذلك ننبه المطالبات بالمساواة الى أنهن يعلن الحرب على بنات جنسهن . .

والمرأة اذا لم تحقق أنوثتها داخل بيتها، فليس لها من الهناءة الزوجية حظ أو نصيب . .

وهنا يبرز هذا السؤال مرة أخرى: لماذا نتزوج؟

إذا كان البيت والحياة الـزوجية خـاليين من الهناءة.. فلمـاذا نتزوج اذن؟

إذا كانت المرأة تريد أن تكـون مثل زوجهـا في كل شيء.. فما الفرق اذن بين الرجل والمرأة..؟ ولماذا نتزوج؟

إذا كـان الرجـل منصرفـاً الى غير شؤون بيتـه وزوجه وأولاده فلماذا نتزوج اذن؟

إذا كان البيت بحاجة الى رعاية المرأة له.. وتربية الأولاد.. والقيـام بشؤون زوجهـا.. وهي في شغــل عن هـذا بـوظيفتهـا ومنصبها.. فلماذا تزوجت اذن؟

لماذا دفع الرجل مهراً وأثث سكناً، وهو غير قادر على تحمل أعباء الحياة الزوجية؟

قد يكون للمرأة مندوحـة في الزواج.. لأنهـا تريـد أن تكون في حماية زوج ورعايته.. وذات بيت مستقل عن بيت أسرتها..

ولكن الرجل.. لماذا أقبل على الزواج، وتذوق طعم الحب قبـل أن يقبل عليـه، ثم لماذا أدركـه السأم والملل، فـراح يقضي أوقاته في الخارج بين أصحابـه.. فهو متـزوج في وثيقة رسميـة، ولكنه عزب بفكره!!

كل هذا يطرح علينا سؤال: لماذا نتزوج؟

كيف يختار الرجل زوجته

إن اختيار الرجل زوجته أخطر قرار يصدره على نفسه..

فهو يستطيع أن يستبدل أي شيء في حياته: وظيفته.. مسكنه.. مصادر رزقه.. أصدقاءه.. مهنته.. الا الزوجة.. فإن قرار استبدالها أبغض الحلال الى اللّه.. بل ان الطلاق يهتز له عرش الرحمن.

وإذا كان الزوج قريباً من اللّه، سائراً على منهجه.. فإنه لا يقدم على شيء يغضب اللّه، حتى ولو كان هذا الشيء حلالاً مثل الطلاق..

ولذلك أوصى النبي ﷺ بتزويج من نرضى خلقه ودينه، والا يكون رفضنا له فتنة في الأرض وفساداً كبيراً.

قال في حديثه الشريف: إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه، فزوجوه. ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

وأوصى أيضاً بأن ينظر الخاطب الى خطيبته في وجود محرم.. ولا يأخذ أوصافها بالسماع.. فقال للمغيرة بن شعبة حين خطب امرأة: أنظر اليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما.. أي يوفق..

لماذا أعطى الرسول ﷺ الخاطب حق النظر الى المرأة التي سيتزوجها.. وهو الذي أمرنا بغض البصر..

لأن مقام الخاطب مقام اقبال على عمل مشروع.. وما دام

مقبلاً على عمل مشروع.. فيحل له في هذا الموقف ما لا يحل له في موقف آخر.. كأن يرى امرأة في الشارع أو في السوق، أو في العمل، فيلاحقها بنظراته..

في الموقف الأول تحل له النظرة، وفي الثانية تحرم عليه..

والخاطب يذهب الى خطيبته، ونصب عينيه قول الرسول ﷺ: الدنيا متاع. وخير متاعها المرأة الصالحة.. التي أن نظرت اليها سرتك..

وإذا كان الخاطب متديناً.. فإنه يبحث عن ذات الدين.. لأنها ستحفظ عليه عرضه وماله وشرفه وكرامته..

سيطبق ما أوصى به الرسول ﷺ في الزواج.. ووصاياه مضوأة بالحكمة.. من نفذها بصدق وأمانة، حظى بالسعادة الزوجية.. وحفظ حياته تماماً من التعاسة والشقاء..

فالرسول ﷺ يوصي المقبلين على الزواج بأن يفضلوا ذات الدين على من عداها من النساء.. ويقدم لهم الدليل والبرهان والحجة..

يقول في حديثه الشريف:

لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن. ولا تزوجوهن لأموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن. ولكن تزوجوهن على الدين. ولأمة سوداء ذات دين أفضل.

ينبهنا النبي ﷺ الى أن حسن المرأة قد يكون وبالاً عليها.. قد يصيبها بالغرور والكبرياء ازاء ما تتلقاه من الكلمات الخادعة البراقة، وما تحسه من النظرات النهمة الظامئة.. فلا تلبث أن تقع

فريسة مرضى القلوب.. وقد يشغلها حسنها عن واجبها.. فتصبح كالدمية خالية من الصفات الأنثوية كالأمومة واسعاد الأسرة.. وكم جنى الحسن على كثير من النساء، وأرداهن كما قال الرسول ﷺ.

فالمظهر الخارجي للمرأة لا يكفي لأن يكون سبباً للزواج منها.. اذ لابد أن يلتقي جمال النفس مع جمال الوجه والقوام.. حتى لا تفقد الأنوثة الخلابة الجذابة عنصري الطهارة والعفة..

والرسول ﷺ لا يوصي بعدم الزواج من الحسناوات.. فقد قال في حديث آخر عن صفات المرأة: التي ان نظرت اليها سرتك.. ولكنه يشترط في المرأة أن تكون ذات دين..

ثم نأتي للوصية الثانية التي يقول فيها ﷺ: ولا تزوجوهن لأموالهن.. فعسى أموالهن أن تطغيهن..

فالمرأة ذات الدخل الكبير تحس في قرارة نفسها أنها أفضل من زوجها.. وينعكس احساسها هذا على تصرفاتها، وبخاصة اذا أصيب الزوج بكارثة، واحتاج الى مساعدة زوجته له بالمال.. في هذه الحالة تشعر المرأة بأنها ذات اليد العليا، وأن من حقها أن تتولى قيادة البيت، وأن يصبح زوجها في المرتبة الثانية..

والأدهى من ذلك أن المرأة ذات الدخل الكبير أو الثراء الواسع تقر في وجدان أولادها أنها صاحبة الفضل في تربيتهم. والانفاق عليهم، وأنها لو لم تنفق من مالها عليهم، لأصيبوا بالضياع، وتوقفوا عن الدراسة، وأصبحوا في مؤخرة المجتمع!!

أي طغيان أشد من هذا الطغيان؟.. ان مال المرأة قد يفقدها

الشعور بتوقير الزوج، واعطائه ما يستحق من اجلال.. فضلاً عن أنه يفقدها الحب الأسري الذي يضيء حياة الأسرة..

فالرجل الذي يذهب الى امرأة يتزوجها، طمعاً في مالها وثروتها، يقع دون أن يدري أسيراً في يد زوجته.. ولا يشعر بالسكينة وراحة البال وهدوء الأعصاب..

قد يتوافر له المال الذي يطلبه.. ولكن على حساب كرامته وكبريائه..

وقد تتاح له أطايب الطعام.. ولكن لا يتاح له الاحترام والتوقير..

انه يعيش تحت رحمة زوجته.. ان أرضاها أعطته.. وان أغضبها حبست عنه العطاء..

هو أمام المجتمع رب الأسرة والقوام على زوجته.. ولكنه لا يستطيع أن يمارس القوامة، وهي حق مشروع له..

وهنا نفهم الحكمة من تحذير النبي ﷺ من الزواج من ذات المال..

وليس معنى هذا أن كل ذات مالٍ يجب أن ينصرف عنها الرجال.. وأن يعزلوها عن مجتمع المتزوجين..

وانما يشترط فيها التدين.. فحين تتصرف في اطار قيم الاسلام ومبادئه، تجد أن الزوج هو القائد الأعلى للبيت، حتى وان كان صفر اليدين، خاوي الوفاض..

وما دام هو القائد الأعلى للبيت، فلابد أن يمسك بزمام الأمور..

الزوجة لا تتعالى ولا تتكبر ولا تتجبر.. لأنها صاحبة الشروة في البيت.. وانما تبذل الحب قبل أن تبذل المال، وتقدم العواطف قبل أن تقدم أطايب الطعام، والمائدة الشهية..

إن ابتسامة الزوجة في وجه زوجها أثمن من كنوز الأرض عند الزوج..

والاسلام أمرها بحسن الطاعة، وأن تكون سكناً للرجل، تهون عليه متاعب الحياة، وتمسح عنه الهموم.. وتكفكف عنه الآلام..

فإذا عاد الرجل الى بيته، واستقبلته امرأته بوجه متهجم، وحدثته بلغة المال، فإنه يشعر بضآلة نفسه، وانكماش كبريائه كزوج.. وانهيار شممه.. وتداعى عزته.

وهنا تتلجلج الرجولة بين حناياه، فإما أن يرضى بسجن كبريائه ورجولته.. واما أن يهرب من البيت.. وكلا الأمرين شاق على النفس.. مر المذاق.

بعد ذلك نأتي للوصية الثالثة.. وهي قوله ﷺ: ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة سوداء ذات دين أفضل..

لماذا ركز الرسول ﷺ على ذات الدين ولو كانت سوداء؟.

إنه يريد للرجل حياة آمنة في عش الزوجية.. ولا يمكن أن تتوافر هذه الحياة الآمنة إلا إذا كان البيت يظله الدين بمبادئه وقيمه ومثله العليا وآدابه الرفيعة.

فالزوجة المتدينة لا تستقبل أحداً في غيبة زوجها.. الا اذا كان محرماً لها..

ولا تفرط في مال زوجها، ولا تخرج منه الا بأذنه . .

ولا تؤذى جيرانها بالكلمة أو حتى بالنظرة . .

ولا تهمل شأناً من شؤون بيتها . . مهما تجشمت من المتاعب، وتحملت من المشاق . .

إن كل تصرف لها تقيسه بمقياس الدين، ولا تتصرف وفق الهوى والغرض . .

فهي أمينة على عرضها وشرف زوجها . . وصادقة مع اللّه ومع الزوج في كل عمل تؤديه . .

وقلبها موصد على حب زوجها . . لا ينفتح لرجل آخر . . لأنها تعلم أن اللّه محاسبها على الخطوة والنظرة والكلمة .

وحين تكون الزوجة متمسكة بدينها، فإن الدين يضفي عليها جمالاً لا يقاربه جمال البشرة . . جمالاً يزداد نصوعاً مع الأيام . . بينما جمال البشرة يتلاشى مع مرور الزمن . . ويختفي حين تدخل المرأة مرحلة المشيب . . وتصبح بقايا امرأة . .

وزوجة بهذا الجمال تحتفظ بحب زوجها ورعايته . .

فهو لا يداخله الشك في سلوكها، ولا يرتاب في تصرفاتها ولا يحس نحوها بأي نوع من الظن أو التوجس . .

ان طهارتها لا يتطرق اليها شك . . وعفتها لا تحيط بها ريبة . .

وحتى ان أحست منه ما يغضبها . . فإنها لا تخونه بقلبها وعواطفها . . بل تنفس عن غضبها بدمعة مجهشة أو كلمة عتاب .

ودمعة المرأة أوقع في النفس من مئات المقالات والخطب.

والقرآن وصف المرأة بأنها سكن الرجل.. حصنه ومأمنه.. اذا حزبه أمر يفزع اليها، ويفضي لها بما يجيش في صدره، ويتأجج في جوانحه.. ويعتمل في نفسه.

والمرأة العاقلة المتدينة هي التي تطفيء جذورة انفعال زوجها.. لكي يتصرف في اطار التعقل والوقار.. فلا يجمح به الانفعال الى اقتران ما يندم عليه بعد ذلك ويتحسر دون أن ينفعه الندم أو الحسرة..

والمرأة المتدينة تحفظ لزوجها كرامته في المجتمع، ومنزلته بين الناس.. على عكس المتبذلة في ثيابها وزينتها.. فإنها تدفع الناس دفعاً الى ملاحقتها بما لا يليق من القول.. وتجريح زوجها الذي ترك جسد امرأته نهباً للعيون الآثمة والألسنة الحداد..

فالمرأة أما روح وريحان على زوجها وبيتها.. وهذا لا يتأتى الا من تمسكها بأهداب الدين.

وأما تعاسة وشقاء لزوجها.. لأنها جعلت من جمالها ومفاتنها معرضاً لمن شاء أن يتفحص ويتأمل ويستمع.

اختيار الزوجة اذن لا ينبغي أن يتم على عجل، ولا يصح أن يقوم على أساس الجمال وحده أو المال وحده..

وقد أوصانا الرسول ﷺ أن ننظر الى المرأة التي نريد الزواج منها.. وألا نتزوج الا بعد اقتناع كامل..

روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أنه كان جالساً عند النبي ﷺ.. فجاء رجل وأخبر النبي ﷺ أنه يريد أن يتزوج امرأة من

الأنصار.. فسأله النبي ﷺ: أنظرت اليها؟ قال: لا. قال فاذهب، فانظر اليها، فإن في أعين الأنصار شيئاً..

ولم تكن وصايا النبي ﷺ مقصورة على النظر الى الخاطبة.. وانما كان يوصي بأن يدقق الانسان في اختيار زوجته، لكي ينجب أولاداً صالحين..

يقول في حديثه الشريف: تخيروا لنطفكم، فإن العرق دساس..

وكان يحبذ الزواج من الفتاة البكر.. فقد جاءه رجل وأخبره أنه تزوج ثيبا.. فقال له الرسول ﷺ: أفلا تزوجت بكرا تلاعبها وتلاعبك؟.

وبهذا وضع الرسول ﷺ أسس الزواج الصالح.. والبيت السعيد..

وعلمنا الرسول كذلك أن نتزوج من أجل غض البصر واحصان الفرج، وصلة الرحم.. لا من أجل العز أو المال أو الحسب حتى يكون زواجاً مباركاً.. فهو القائل في حديثه الشريف:

«من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله الا ذلاً ومن تزوجها لمالها لم يزده اللّٰه الا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده اللّٰه الا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها الا أن يغض بصره، ويحصن فرجه، ويصل رحمه، بارك اللّٰه له فيها، وبارك لها فيه».

كيف تختار المرأة زوجها

ألمحنا فيما سبق الى أن أخطر قرار يصدره الرجل هو قرار اختيار زوجته.. ونضيف الى هذا أن موافقة المرأة على الرجل الذي تقدم اليها وطلب يدها هو أهم قرار تتخذه في حياتها كذلك.

فالمرأة هي الجانب الأضعف، لأنها لا تملك أن تنفصل عن زوجها الا بمشقة، سواء بتدخل الأهل، أو بحكم من المحكمة.. ولذلك لابد أن تتأنى وتتريث وتدقق في الاختيار.

وقد أمرنا الرسول ﷺ بأن نستشير الفتاة ونأخذ رأيها.. ونقدم لها النصح فقط..

ولكن ليس من حقنا كآباء وأمهات أن نرغمها على الزواج من رجل لا تحبه..

اذ كيف يتسنى لها أن تعاشر انساناً كارهة له، أو غير راضية عنه..

انها انسانة لها مشاعرها، ولا يصح اهدار هذه المشاعر، والزواج تحديد لمستقبلها ومصيرها.. فلا يجوز لأحد أن يرسم لها هذا المستقبل والمصير.. حتى ولو كان الأب والأم..

إن رأيهما استشاري فقط.. وليس ملزماً للفتاة..

فالرسول ﷺ يقول: لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا البكر

حتى تسـأذن. . قـالـوا: يـا رسـول اللّه: كيف أذنهـا؟ قـال: أن تسكت. .

هذا الحديث الشريف حدد تحديداً واضحاً موقف الأهـل من زواج الفتاة البكر، أو المـرأة الثيب. . أعطى البكـر والثيب حريـة الاختيار، ووصف طريقة كل منهما في الاختيار.

لم يترك أمر الـزواج لهوى الـوالدين، واغفـال رأي الفتاة في أمر يخصها وحدها. . وانما وضع القاعدة الشرعية التي يبنى عليها صرح الحياة الزوجية من أول لبنة فيها. . جاءته امـرأة وقالت لـه: أن أبى زوجني من ابن أخيـه ليرفـع بي خسيسته. فـرد زواجهـا. فقالت: أمضيت ما فعل أبي، وانما أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من شيء. .

وتعالوا نتابع وصايا الرسول ﷺ في الزواج.

انه أوصانا باختيار ذات الدين حتى ولو كانت سوداء. . المهم أن تكون ذات دين. .

فبماذا أوصانا عندمـا يتقدم الينـا رجل يـطلب يد فتـاة، سواء كانت بنتاً أو أختاً، أو أي فتاة لنا ولاية شرعية عليها. .

قال: اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه. . الا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. .

انـه حذر هنـا من رفض صاحب الخلق والـدين. . لم يأمـرنا بتزويجه فقط. . وانما وصف رفضه بأنه فتنة وفساد كبير!!

لماذا؟

لأن صـاحب الدين سيبني بيتـاً مسلماً يـطبق فيه مـا أمـر اللّه

بـه. . سيضيف لبنة جـديـدة الى صـرح المجتمع الاسـلامي الشامخ.

فرفضه يعني شيئاً خطيراً ومخيفاً. . وهو أن المجتمع لا مكان في وجدانه للرجل المتدين. .

ومتى أوصد المجتمع وجدانه دون الرجل المتمسـك بدينـه، فانه يصبح مجتمعاً خواء يهتز أمام أصغر الأعاصير!!

ومجتمع كهذا يفضل المال والجـاه والحسب والمنصب على الدين. . من السهل أن تثـور فيه الفتن، وتضـطرب الأحوال، ولا يشعر الناس فيه بأمن أو سكينة أو استقرار. .

ومتى كان رب الأسرة مهزوز الثقة في أهله، مبلبـل الخواطـر فـانه يفقـد الدافـع الى الطمـوح، ويخلد الى الكسـل والبـلادة. . وتنطفي فيه جذوة الابداع.

فكيف تطلب من انسان يطحنه الاحبـاط أن يشارك في البنـاء والعمران؟.

وكيف تنتـظر من رجـل لا يشعـر بـالأمـان النفسي، أن يقـدم الأمان للآخرين؟.

وكل هذا سببه قيام الزواج على أساس غير ديني. .

واذا تبـادر الى ذهنـك سؤال حـول زواج الأجـانب وهم غيـر متدينين. . هل يشعرون بالاحباط في حياتهم الأسرية؟

أقول لك: راجـع حالات الانتحـار التي تحدث بسبب فشـل الحياة الزوجية في تلك البلاد. . لا شك أنك ستقف مذهولاً أمام الكم الهائل من هذه الحالات. .

هؤلاء الأجانب نالوا حظاً من الترف لم ننله في بلادنـا. . ولا يعوزهم شيء من متع الحياة. .

ومع ذلك فانهم يهربون من بيوتهم. . ولا يحس بعضهم ازاء بعض بالمودة والرحمة. .

وتنتهي حياة الكثيرين منهم بالانتحار. .

أما المسلم فإن الدين يأمره بطلاقة الوجه والبشاشة حين يلقى زوجتـه. . كما يـأمر زوجتـه بأن تستقبـل زوجها بـابتسامـة راضيـة وكلمة حلوة ونظرة حب وحنان. .

لأن بشـاشة الـرجل عنـد لقاء زوجتـه سنة. . وكـذلك حسن استقبال المرأة لزوجها من وصايا الرسول. .

والـرجل المتـدين اذ أحب امرأتـه أكرمهـا، واذا كـرههـا لم يظلمها. . لأنه يتعامل معها وفق تعاليم الكتاب والسنة. .

فالرسول ﷺ يقول: مـا أكرم النساء الا كريم. . ولا أهـانهن الا لئيم. .

والمتمسك بدينه لا يدخل اللؤم طبعه. . لأن اللؤم من طبائع الأشرار. .

ثم إن المـرأة المتـدينـة اذا أنكـرت من زوجهـا شيئـاً. وهي انسانة يجـوز عليها تقلب العـواطف، فإنهـا لا تفعل في غيبتـه ما يسؤوه. . ولا تهـدر حقاً من حقـوقه في حضـوره. . لأن الاسـلام علمها أن تصون عرضها ومال زوجها، ولا تفعل شيئاً يجلب عليها غضب اللّه ولعنته. .

فهي تتعرض لغضب اللّه ولعنته اذا أغضبت زوجها. . بشرط

ألا يكون غضبه بسبب معصية أمرها باقترافها..

لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..

والمؤمن لا يمكن أن يأمر امرأته باقتراف معصية.. فهو يعينها على طاعة اللّٰه عز وجل، وينهاها عن معصيته..

وحتى إذا أهملت في أداء الصلاة فإن الاسلام يطلب اليه أن يأمرها بالصلاة، ويكرر الطلب، ويتجمل بالصبر.. حتى تؤدي ما فرضه اللّٰه عليها..

يقول عز وجل: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾.. ويقول الرسول ﷺ: «رحم للّٰه رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء.. ورحم اللّٰه امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء..

وقد جاءت امرأة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه، وصارحته بأنها لا تحب زوجها.. فقال لها: اذا كانت احداكن لا تحب الرجل منا، فلا تخبره بذلك.. فإن أقل البيوت ما بني على المحبة، وانما يتعاشر الناس بالحسب والاسلام.. أين الرعاية والتذمم؟..

من هذا نتبين حكمة الرسول في تزويج الرجل المتمسك بدينه.. لأن المرأة التي يطلب يدها ستكون أمانة عنده، وهو يعلم من الاسلام كيف يحافظ على الأمانة..

فذو الدين يغار على امرأته، ويأمرها بارتداء الحجاب، حتى

لا تكون الأجزاء المكشوفة من جسدها وقود جهنم . .

وذو الدين لا يجعل امرأته تختلط بالرجال، ويقول: أنا واثق بها، ولا يمكن أن تسقط أو تنحرف أو تخالل.

وذو الدين لا يدخل الخمر بيته، ولا يتعاطى المخدرات، ولا يسمح لامرأته أن تؤذى جيرانه . .

وذو الدين يأمر زوجته بأداء ما فرض اللّه عليها من صلاة وصيام وحج عند الاستطاعة . .

وذو الدين لا يكذب على زوجه ولا يكلف امرأته من الأعمال فوق ما تطيق، بل يتأسى بالرسول ﷺ . . فقد كان يساعد أهله في عمل البيت . . ويرضى بأيسر الطعام . .

فقد قالت السيدة عائشة رضي اللّه عنها عن تصرف الرسول داخل منزله: كان يقم بيته، ويرفو ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته.

وذو الدين قدوة طيبة لزوجه في سلوكه وتصرفاته . . فهو ينفق في غير اسراف، ويتحدث في غير لغو، ويجعل البيت ملاذاً أميناً لأهله . .

فإن طلب ذو الدين يد فتاة ورفض أهلها، فانهم بذلك يحدثون فتنة وفساداً كبيراً . .

لأنهم رفضوا أن تعيش ابنتهم في ظل الدين ومبادئه وقيمه . . وآثروا على الدين الحسب أو المنصب أو الجاه أو المال . .

وأي فتنة وفساد أبشع من أن يصبح الدين في المرتبة الثانية أو الثالثة في المجتمع!

واي فتنه وفساد اصر بالمجتمع من ان يصبح الرجل المتمسك بدينه لا مكان له فيه!!

ان الذين لا يرضونه زوجاً لابنتهم آذوها من حيث لا يشعرون..

فهم يزجون بها في بيت.. فيه الترف وفيه المتاع.. ولكنه خال من المحبة والمودة..

والمرأة بطبعها حساسة عاطفية.. وقد تكون مفرطة الحساسية.. فتصطدم برجل كالصخرة الصماء.. ينهش كرامتها في لحظة غضب.. ولا يعاملها بالسماحة والصبر كما يفعل المتدين!!

مثل هذا الزوج لم يتأدب بأدب النبوة.. ولم يتجمل بأخلاق الرسول ﷺ..

فالرسول يقول في حديثه الشريف: استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع. وان أعوج شيء الضلع أعلاه. فإن ذهبت تقيمه كسرته. وان تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيراً..

لم تقتصر وصية الرسول ﷺ على معاملة كل منا زوجته معاملة طيبة كريمة.. وانما أمر المسلمين بأن يوصي بعضهم بعضاً خيراً بالنساء.. فهي وصية عامة، ودعوة لجميع المسلمين أن يتواصوا خيراً بالنساء.. ويكونوا رفقاء بهن.. متلطفين معهن في المعاملة.. لأن المرأة خلقت من ضلع أعوج..

فمن أقرب الناس الى الرسول ﷺ، وأكثرهم استجابة

لدعوته.. انه الرجل المتدين الذي أمر الرسول بتزويجه، والا فسوف يترتب على رفضه فتنة وفساد كبير..

وحين نزوج الرجل المتدين، فإنما نزوج واحداً من خيارنا.

لأنه يتأسى بالرسول في كل شيء ويتخذ منه القدوة الطيبة.

والرسول ﷺ يقول: خيركم خيركم لأهله. وأنا خيركم لأهلي..

ويؤكد على هذا المعنى في حديث آخر فيقول: أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم.

ثم يعلمنا الرسول ﷺ أدب الحياة الزوجية فيأمرنا بكتمان أسرار بيوتنا.. فلا يصح للرجل أن يحدث الناس بما جرى بينه وبين زوجته.. والا أصبح من شر الناس. وكذلك لا يصح أن تفشى المرأة ما حدث سراً بينها وبين زوجها.. والا وصمت بنفس الوصمة.

فالنبي ﷺ يقول: ان من شر الناس عند اللّٰه منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي الى امرأته، وتفضي اليه.. ثم ينشر أحدهما سر صاحبه..

نخلص من هذا الى الهدف الذي نستهدفه. وهو: كيف تختار المرة زوجها..

ان الاسلام أعطاها حرية الاختيار.. ولكنه أمر البكر بألا تتزوج الا بولي وشاهدين حتى لا تتفكك الأسر، ويتحول مفهوم الحرية الى فوضى..

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل تستطيع كل فتاة أن

تحسن الاختيار، وبخاصة أن المجتمع غاص بالدهاة والخبثاء وذوي النوايا الماكرة؟!

إن ثمة شباباً يجيدون كلمات الغزل والاستحسان، ويلعبون أدوار الحب بمهارة تخفى ما في نفوسهم من خبث ومكر ودهاء..

هؤلاء معاول هدم في المجتمع.. ويجب الحذر منهم.. وتوقى شرهم..

فإذا كان الاسلام منح المرأة حرية اختيار زوجها، فإنه وضع قاعدة عامة تنصب على جميع شؤون حياتنا، وهي قوله تعالى: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾. وقول الرسول ﷺ: « ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار ».

فالفتاة حين يطلب يدها أحد الرجال.. يجب أن تبحث أولاً عن مدى تمسكه بالدين.. فإذا كان ذا دين وخلق، فإن ما يبقى بعد ذلك يهون..

لأنه لن يعايش امرأته لفترة محددة، وانما سيعايشها العمر كله..

أما إذا كان ذا سيارة فاخرة، ودخل محترم، ويستطيع أن يؤثث مسكناً بأغلى الأثاث.. ثم هو لا يؤدي الصلاة مثلاً، ولا يرعى حق اللّه، فواجب الفتاة أن تتريث وتتمهل ولا تقدم على مثل هذه الزيجة القائمة على المال وحده.. أو المنصب وحده..

إن المال لا يحقق سكينة النفس ولا راحة البال.. والا كان الأغنياء أكثر الناس تمتعاً بالراحة والسكينة.. مع أنهم يملكون كل شيء الا هاتين الخلتين.

فالمال قد يشغل صاحبه حتى عن دينه وعقيدتـه. . وقد يصبح معبوداً له. . يعكف على تنميته، ويظل حارساً له حتى يسلمه الى الورثة. . ويسلم نفسه الى ملائكة الحساب. .

والمـال قد يقتـل في النفس كـل عـواطف الحب. . الا حب الثروة فقط. .

والمال قد يجعل صاحبه شحيحاً بخيلاً ضنيناً بالانفاق. . لأنه حريص على زيادته وعدم نقصانه. .

فزوجة الرجل الثـري تتمتع بمـظهر خـلاب خداع. . وتعيش في قفر روحي. . لا حب ولا عواطف ولا أماناً نفسياً. . ولا حناناً دافئاً!!

يـدهـا ممتلئـة بـالنقـود، وقلبهـا فـارغ من الحب والعـواطف والانسانية ولذة العبادة. .

جرفتها مظاهر الدنيا في تيارها فغرقت حتى أذنيها، ولم تشعر بما تشعر به امرأة رجل متدين بسيط يوفر لهـا ضروريـات الحياة، ويسعدها بحبه وحنانه وخوفه عليها وحرصه على رضاها.

فالدين علمه كيف يجعل من بيته جنة صغيرة بأقل النفقات.

والدين علمه أن زوجته وديعة اللّه عنـده. . وليس بمسلم من يخون الودائع. .

فهي قد اختارته لأنه ذو دين وخلق. . وأقصى مـطمع لهـا أن تقطع معه رحلة الحياة في هدوء واستقرار وأمان.

وهكذا. . فعندما يتزوج ذو الدين ذات الدين فـإن كلاً منهمـا لا يخطيء في حق صاحبه. .

والبيت الذي يحوطه الدين بسياج القيم الرفيعه لا يدخله الشيطان.. بل لا يتسلل اليه شبح الطلاق..

لأن الزوج أحسن في البدء اختيار زوجته.. ولأن الزوجة أحسنت بدورها اختيار زوجها.. فتم بناء الحياة الزوجية على أساس متين..

ورحم اللّه أبا الدرداء حين قال لامرأته: اذا رأيتني غضبت فرضني. واذا رأيتك غضبى رضيتك، والا لم نصطحب.

الخطيبان قبل الزواج

الخطبة مرحلة انتقالية بين الاتفاق على الزواج وعقد القران. ولهذا لا تترتب على الخطبة أي حقوق شرعية، لا للخاطب، ولا لخطيبته.. ولكن لا يصح لأي انسان أن يخطب على خطبة أخيه..

فماذا يحدث في أثناء هذه المرحلة الانتقالية؟

هل يجوز للخطيبين أن يلتقيا، وهما في عرف الشارع أجنبيان؟

نعم يجوز أن يلتقي الخاطب بخطيبته في حضور محرم. لزيادة التعارف والتقارب..

ولكن خروج الخاطب مع خطيبته أمر محرم تماماً.. وهذا مرض من أمراض العصر، أخذناه عن الأجانب، وبخاصة اليهود.. وما زال هذا المرض متفشياً في المدن فقط.. لأن الريف لا توجد فيه فرصة للتلاقي، ولا يسمح أهل الفتاة بخروج ابنتهم مع خاطبها، تحت أي ظرف من الظروف.

بيد أننا نرى في المدن بعض الناس لا يجدون حرجاً في خروج ابنتهم مع خطيبها.. بل يرحبون بذلك، على زعم أن اللقاء سيربط بين قلبيهما، وسيزيد الألفة بينهما والمحبة..

ونسى هؤلاء أمرا مهماً وهو أن الخاطب قد يعدل عن خطبته

لسبب أو لآخر، وتتعرض ابنتهم لـلأقاويـل المفتراة، والشـائعات الكاذبة.

فالشاب الذي يفسخ خطبته لا يضيره شيء.. والمجتمع لا يتناوله بالنقد والتجـريح.. بعكس الفتـاة، فإنهـا تتجرع مـرارة ما يجري على ألسنة الناس من زور وبهتان.

كما أن أهل الشاب في مأمن من سخرية الناس.. بينما أهل الفتاة يتغامز عليهم الناس في كل مكان..

ولا أدري لمـاذا ينحى المجتمع بـاللائمـة على الفتاة وأهلهـا فقط.. ولا يتناول الشاب بالنقد واللوم والتقريع..

مع أن الخطأ مشتـرك.. ويجب أن تكون المؤاخـذة مشتركـة كذلك..

صحيح أن أهل الفتاة ارتكبوا جرماً فظيعاً في حق ابنتهم حين سمحوا لها بالخروج مع شاب أجنبي وعدهم بالـزواج منها ثم تبين أن هذا الشاب عريان تماماً من القيم والأخلاق..

وأهـل الشـاب مسؤولـون أيضـاً عن سلوك ابنهم، ويجب أن يؤاخـذوه عليه.. فـإذا كان الشـاب يفعل ذلـك بعيـداً عن أعينهم ورقابتهم، فهم معذورون.. لأنه ارتكب ما ارتكب بدون علمهم.

أما أن يتركوا الحبل على الغارب بحجة أنه شاب، ولا يضيره شيء، فهذا راجع الى أن الأسـرة لا تتمسك بـالدين، ولا تـرعى اللّه.. ولا تصغي لهمسات الضمير..

المشكلة اذن مشكلة أسـاسيـة.. نـابعـة من البيت.. سـواء بـالنسبة للشـاب أو للفتاة.. فـأهل كـل منهما مسؤولـون مسؤولية

كاملة عما يحدث. .

الأم التي تسمح بدخول خطيب ابنتها الى البيت في غيبة زوجها أو بدون أذنه. . أم تعصي اللّه ولا تخافه، وتعرض سمعة ابنتها وسمعة الأسرة كلها للنقد والتجريح، واللوم والعتاب!

وكذلك الأم التي تأذن لابنتها بالخروج مع خطيبها بحجة اثارة عواطفه والحصول منه على ما أمكن من الهدايا. . أم مجردة من الحصانة والوعي، وفاقدة الاحساس بمعاني الأمومة، لأنها عرضت ابنتها للضياع.

والطامة الكبرى أن يعلم الزوج بتصرفات زوجته ويغضي عنها. .

يحدث كل هذا في غيبة الدين عن البيت. . فما من بيت يظله الدين. . تجري فيه مثل هذه التصرفات. .

إن الاسلام يحرم اجتماع الرجل بالمرأة في خلوة وعلى انفراد. . فالرسول ﷺ يقول: «لا يخلون رجل بأمرأة الا مع محرم». ويقول أيضاً: «ما اجتمع رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما». .

ولكننا مع الأسف. . نرى في المجتمع أموراً لم تكن عند أجدادنا. . وانما ورثناها من اختلاطنا بالأجانب. . وبخاصة اليهود. . لأن اليهودي يسمح لخاطب ابنته أن يقيم مع الأسرة فترة من الزمن، يخرج خلالها مع خطيبته الى أي مكان، حتى اذا ما أحس كل منهما بميل نحو الآخر أعلنا موافقتهما على الزواج. .

هذه العادة المرذولة تسربت الى مجتمعنا المسلم، فقضت

على عنصر الحياء فيه.. وطمست معالم المباديء الاسلامية التي كانت تتحلى بها الأسر. فأصبحنا نرى الخطيبين بعد الخطبة مباشرة ينطلقان بلا حدود ولا قيود.. سواء بمعرفة الأهل، أو بدون علمهم..

وهما لا يكتفيان بالجلوس في حديقة عامة أو ناد اجتماعي أو رياضي أو أحد المطاعم، أو التسكع في الشوارع.. وانما يتواعدان سراً على اللقاء في احدى دور اللهو، ويجلسان وسط الظلام بعيداً عن أعين الرقباء!!

تصور ماذا يحدث في هذه الخلوة وسط الظلام..

شاب وفتاة في سن النزق والطيش.. لا يستطيع كل منهما أن يقاوم سعار غرائزه.. يجلسان في مكان لا رقابة عليهما فيه، ويريان أمامهما مناظر مثيرة من رقص وقبلات وعناق واحتساء خمر، وما شابه ذلك من ضروب المثيرات..

ماذا يفعلان وهما واقعان تحت تأثير الاغراء والاغواء ووسوسة الشيطان؟

إن الساعات التي سيقضيانها في هذه النشوة ستقتل في الشاب كل دوافعه الى الزواج..

انه يريد أن يجرب فتيات أخريات ما دام الحصول عليهن لن يكلفه الا وعد بالزواج..

وهكذا أصبحت الخطبة، وهي مقدمة للزواج ووسيلة اليه، مقدمة لارتكاب المعاصي ووسيلة اليها..

ولهذا حرم الاسلام اختلاء الرجل بالمرأة.. وسمح بلقاء

الخاطب مع خطيبته في حضور محرم . .

ولنتدرج مع الاسلام في تشريعه العالي الحكيم . .

انه وضع من القواعد ما يضمن للأسرة كرامتها وشرفها، وما يكفل للمجتمع أمنه وسلامه . .

وبما أن الزواج أساس بناء المجتمع، فإن تعاليم الاسلام تقضي بأن يقوم البناء على أساس سليم . .

وسلامة البناء تتطلب ألا نضع لبنة الا وفق منهج علمي . . والا حدث خلل وتصدع في المبنى . .

واللّه عز وجل آتانا منهجاً دقيقاً محكماً، لكي نبني به أنفسنا وحياتنا . . فمن أخذ بهذا المنهج عاش انساناً سوياً . . وأبحر في سفينة الحياة بدون أن تعصف به الأنواء والرياح . .

ومن منهج اللّه في مجال الزواج ألا يخطب الانسان امرأة مخطوبة، مهما أعجبه حسنها أو غير ذلك من الصفات الخلابة فيها . .

وحديث الرسول ﷺ واضح في هذا الشأن. فهو القائل: لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه . .

لأن الرجل اذا طلب يد امرأة مخطوبة فغالباً ما يرفض طلبه، ولا يجني الا الكراهية من خاطبها . .

وبما أن الاسلام حريص على أن تكون العلاقات طيبة وحسنة بين أبنائه، فانه يضع القواعد الراسخة لهذه العلاقات . . ولعل في اقدام رجل على خطبة امرأة مخطوبة ما ينافي الذوق والمروءة والخلق الكريم . .

وحتى كلمة الاستحسان لامرأة متزوجة لا يجوز أن تصدر من رجل أجنبي عنها. . لأن هذه هي احدى العادات التي ورثناها عن الأجانب. . فملاطفة المرأة المتزوجة، والثناء على ثيابها أو حديثها أو تفكيرها عمل حرمه الاسلام، لأنه قد يهز مشاعر المرأة، وقد يفتح قلبها لرجل غير زوجها. .

ومن أجل هذا أمر الرسول ﷺ بعدم التقدم لامرأة مخطوبة. . وحذر من افساد المرأة على زوجها.

فلا يجوز اسلامياً أن يخطب الرجل امرأة مطلقة ما زالت في العدة. . لأنه اذا وسوس لها بكلمات غزل أو حب، وأوقعها في شراك مكره ودهائه وخداعه، فربما لا تعود الى مطلقها اذا فكر في اعادة الارتباط بها. . وربما تكون ذات أولاد بحاجة الى رعايتها، فتحدث كارثة أسرية بسبب الرجل الدخيل على هذه الأسرة. .

وهذا لون من ألوان الافساد الأسري الذي حذر الاسلام منه. .

وكذلك لا يجوز خطبة امرأة مات زوجها الا بعد انقضاء عدتها، وهي أربعة أشهر وعشر. . وانما يجوز التلميح لها بالزواج. . أما الخطبة الصريحة بألفاظها المعروفة والمتداولة، فقد حرمها الاسلام بالنسبة للمتوفي عنها زوجها. .

كل هذا تضمنه منهج الاسلام لكي يحمي الأسر من التفكك، ويصون المجتمع من الاضطراب. .

فلا يجوز لخطيب أن يلتقي بخطيبته الا في حضور محرم. . .

ولا يجوز لرجل أن يخطب امرأة مخطوبة . .

ولا يجوز خطبة امرأة مطلقة الا بعد انقضاء العدة . .

ولا يجوز التصريح بخطبة امرأة توفي زوجها ما دامت معتدة .

فالخطبة لا تبيح لمس يد المرأة . . حتى للمصافحة . . لأن الرسول ﷺ لم يصافح امرأة قط ، ولا مس جلده جلد امرأة أجنبية . .

وحين بايعه النساء اكتفين بامساك طرف عباءته . . وهو القائل : « من مس كف امرأة ليس منها بسبيل وضع على كفه جمرة يوم القيامة » . .

وقد نبه في أحاديث كثيرة الى عدم التعرض لفتنة النساء . . سواء باللمس ، أو بالكلمة ، أو بالنظرة . . فقد قال في حديث شريف : « من نظر الى محاسن امرأة أجنبية عن شهوة ، صب في عينيه الآنك يوم القيامة » . والآنك هو الرصاص المذاب .

فمن أباح لنفسه الخروج مع خطيبته فقد استحل ما لا يحل . . وقلد من لا يفرقون بين الحلال والحرام . . ولا يميزون بين الحق والباطل . .

ومن سمح لبنته أو أخته بمصاحبة خاطبها بدون محرم ، فقد سمح بارتكاب الأثم ، واقتراف المعصية . .

ومن ادعى أن الخطبة فترة تعارف ، ويجوز فيها ما لا يجوز قبلها ، ! فقد قال زوراً وبهتاناً . .

واذا كان ثمة من يخاف على سمعة ابنته أو أخته من أن تلوكها الألسن اذا فسخت خطبتها ، أو عدل عنها خاطبها الى أنثى

أخرى.. فينبغي أن يشعر نفس الشعور ازاء بنات الأسر الأخرى، فيؤدب ابنه بأدب الاسلام، ويعلمه أن الخروج مع فتاة أجنبية أمر لا يرضى عنه اللّٰه ورسوله.

وبهذا نقمع الفتنة الكامنة وراء الخطبة..

فمن العجيب أن نقرأ الفاتحة ايذاناً بالاتفاق على الزواج.. ثم لا نعمل بفاتحة الكتاب!!

نطلب من اللّٰه الهداية الى الصرط المستقيم.. ثم بعدها مباشرة ننحرف عن الصراط المستقيم..

لماذا؟

لأننا لم نكن صادقين لا مع اللّٰه، ولا مع أنفسنا، ولا مع الناس.

فالرسول ﷺ لم يرغب في الزواج فحسب، وانما حذر من الأحجام عن الزواج. قال في حديثه الشريف:

« النكاح من سنتي. فمن رغب عن سنتي فليس مني » « وتزوجوا فاني مكاثر بكم الأمم » « ومن كان ذا طول فينكح ».

حين نقرأ هذه الأحاديث الشريفة نتبين الأهمية القصوى للزواج. ونتعرف الحكمة البالغة منه، ولا يملك كل منا الا أن يسارع بالزواج اذا كان عزباً، حتى لا يخرج عن سنة الرسول ﷺ..

وأول خطوة في الزواج هي الخِطبة.. وقد وضع لها الاسلام شروطاً وآداباً ذكرناها فيما سلف..

ثم تـأتي الخـطوة الثـانيـة وهي المهـر. . لأنـه لا زواج بغيـر مهر. . وهو تكريم للمرأة وحق أصيـل من حقوقهـا. . وقد جـرت مناقشات منـذ الصدر الأول لـلاسلام حـول المهر. . لأنـه أحيانـاً يكون عائقاً من عوائق الزواج. .

المهر حق المرأة وحدها

ان الخطوة الثانية بعد الخطبة هي تقديم المهر.. والمهر عنصر أساسي من عناصر صحة العقد.. اذ لا يصح عقد الزواج بدون مهر..

فالمهر هبة من الرجل للمرأة التي ستكون شريكة حياته، ورفيقة عمره، وصديقته في السراء والضراء..

وهو رمز حب، ودلالة مودة.. ولذلك لم يشترط الاسلام له مقداراً معيناً.. لأن الهبة لا تعطي بشروط ولا قوانين..

وهو حق المرأة وحدها.. لا يشاركها فيه أحد.. ولكن جرى العرف في بلادنا على أن يؤثث به مسكن الزوجية.. وهذا لا بأس به ما دامت المرأة راضية غير مكرهة..

يقول جل شأنه: **﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة. فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً، فكلوه هنيئاً مريئاً﴾..**

وقد ناقش العلماء موضوع المهر منذ صدر الاسلام.. لأن بعض الآباء يغالون في مهور بناتهم، مما يحدث أزمة في الزواج، فلم ينتهوا الى تحديد قدر معين له..

إلا أنهم رأوا أن يكون الحد الأدنى له عشرة دراهم.. والحد الأقصى خمسمائة درهم..

كيف استنبطوا هذا الرأي..

بالنسبة للحد الأدنى فإن العلماء استندوا الى الحديث

الشريف: لا مهر أقل من عشرة دراهم.. والى ما رواه سهل ابن سعيد الساعدي أن رسول اللّٰه ﷺ جاءته امرأة فقالت: إني وهبت نفسي لك. فقامت طويلاً. فقال رجل: يا رسول اللّٰه.. زوجنيها ان لم يكن لك بها حاجة. فقال الرسول: هل عندك من شيء تصدقها، فقال: ما عندي الا ازاري هذا. فقال رسول اللّٰه ﷺ: ان أعطيتها ازارك جلست ولا أزار لك. فالتمس شيئاً. قال: ما أجد. قال: فالتمس ولو خاتماً من حديد. قال: فالتمس فلم يجد شيئاً. فقال رسول اللّٰه ﷺ: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم. سورة كذا وكذا.. فقال رسول اللّٰه ﷺ: زوجتكما بما معك من القرآن.

هذا الحديث الشريف يحمل حكماً شرعياً أصيلاً، وهو أنه لا زواج بدون مهر، حتى ولو كان المهر خاتماً من حديد، وهو أدنى شيء في الثمن والقيمة.. كماأنه يحمل صورة رائعة للتيسير في الزواج من القرآن..

ولنا أن نأخذ من هذا الحديث دلالة على عدم المغالاة في المهور.. وأن نتفهم المعنى العام الشامل للزواج.. وهو التيسير على الخاطب.. وألا نرهقه بما لا يطيق، فنصرفه عن الزواج.. وألا نقف منه موقفاً لا يتفق مع روح الاسلام وأصالته ومبادئه السامية..

وإذا كان العلماء قد جعلوا الحد الأدنى للزواج عشرة دراهم، فانهم وجدوا أن هذا المبلغ الضئيل يستطيع أن يدفعه أي مسلم مهما يكن فقيراً.

أما الحد الأقصى فقد جعلوه خمسمائة درهم، اقتداء برسول

اللّه . . فهو لم يدفع لأي من زوجاته أكثر من خمسمائة درهم. ولم يأخذ صداقاً لأي من بناته أكثر من هذا المبلغ . .

كما أنه ﷺ أمر بتيسير الخطبة والصداق. . فقال في حديثه الشريف: ان من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير صداقها.

وأكد على هذا المعنى في حديث آخر: « ان أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة » . .

فالرسول ﷺ لم يحدد مقداراً معيناً للمهر، ولكنه ضرب المثل بنفسه، لنتأسى به في الاعتدال وعدم المغالاة. .

ولعل الحكمة من عدم تقديره حداً أقصى للصداق هو ترك الباب مفتوحاً أمام القادرين ليدفعوا ما شاءوا. . ما دام في وسعهم أن يقدموا صداقاً كبيراً. .

وقد يتساءل سائل: ما الدليل على أن الرسول ﷺ كان لا يدفع صداقاً أكثر من خمسمائة درهم، ولا يأخذ زيادة على هذا المبلغ حين يزوج احدى بناته. .

الدليل أن سلمة بن عبد الرحمن سأل السيدة عائشة رضي اللّه عنها عن الصداق الذي كان يدفعه النبي ﷺ. فقالت: كان صداق رسول اللّه ﷺ لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشا. . أتدري ما النش؟ فقال: لا. فقال: نصف أوقية. فذلك خمسمائة درهم.

أما الحالة الوحيدة التي كان فيها صداق احدى زوجاته أربعة آلاف درهم. . فهي زواجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان. . ولكن الرسول ﷺ لم يدفع هذا المبلغ، وانما دفعه النجاشي ملك الحبشة. .

والسبب أن أم حبيبة كانت مهاجرة مع زوجها عبد اللّه بن جحش في الحبشة، وتوفي عبد اللّه هناك.. فزوج النجاشي، أم حبيبة، رسول اللّه ﷺ، على صداق أربعة آلاف درهم، وكتب بذلك الى النبي ﷺ، فقبل النبي هذا الزواج.

اذن فالمغالاة في المهور أمر بعيد عن سنة الرسول ﷺ..

وأكثر من ذلك بعدا عن السنة أن المغالين يتعللون بارتفاع سعر الأثاث وغلاء الأشياء اللازمة لبيت الزوجية.. ونسوا أن المهر هبة للمرأة «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» أي عطية، وأنه لم يخصص أصلاً لتأثيث بيت الزوجية، وانما تنزل عنه امرأة برضاها، لكي لا ترهق أهلها أو زوجها في تأثيث البيت..

أضف الى ذلك أن الشاب المقبل على الزواج ليس بوسعه الآن.. ازاء ارتفاع الأسعار.. أن يدفع صداقاً، ويؤثث بيتاً، لأن هذا لا يطيقه أي شاب الآن..

كما أن الآباء يواجهون نفس الموقف.. فإذا كان الرجل قد أنجب أكثر من بنت.. فماذا يفعل لكي يفي بحاجة بيوتهن من أثاث وخلافه..

ان موضوع المهور يجب أن يعاد فيه النظر على ضوء الحياة والظروف التي نعيشها الآن.. وأن تتخذ من سنة الرسول ﷺ مقياساً ونبراساً حتى لا نقيم عقبات في وجه الزواج ما أغنانا عنها..

فالمهر الكبير لا يحقق سعادة.. وكذلك الأثاث الفاخر.. لا يدخل السكينة على النفس، وانما يرضي غرور المرأة.. ويرضى كبرياء أهلها..

وانما تنبع السعادة من داخل النفس بتبادل المحبة بين الزوجين.. والمحبة لا تشترى بالمال.. ولكن بالمعاشرة الطيبة، والصحبة الكريمة..

فالنظرة الراضية من عيني الزوج أثمن من كل كنوز الدنيا.. وكذلك البسمة المشرقة على شفتي الزوجة أغلى من كل متاع الحياة..

ومن أجل هذا كان الرسول ﷺ يقدم حب الزوجين على كل شيء.. ويجعل أكل الرجل مع زوجته صدقة، ملاطفتها صدقة، وادخال السرور على قلبها صدقة..

أي يجعل كل عمل طيب في البيت صدقة.. سواء صدر من الرجل أو المرأة..

فماذا يجدي المهر الكبير، والأثاث الفاخر، والقصر المنيف، والسيارة الفارهة، وموائد الطعام الشهي، اذا أقفر قلبا الزوجين من الحب، أو أجدبا من المودة؟.

ان كوخاً متواضعاً في مظهره وأثاثه، ويعيش صاحباه على الحب.. خير آلاف المرات من قصر تتلألأ فيه الثريات، ويبهر الرائي بما يضم من تحف وأثاث.. ولكن الزوجين لا يتذوقان فيه معنى الحب، ولا يرتشفان كأس المودة.

فالمهر، وهو هبة من الرجل للمرأة، يجب أن يكون في الحدود الممكنة، لأن المغالاة فيه قد تكون عائقاً عن الزواج.. والضرر في هذه الحالة يقع على المجتمع كله..

وقد أدرك عمر بن الخطاب خطورة المغالاة في المهور..

وهـو المعروف بحصـافة الـرأي، وبعد النـظر، ووضع الأمـور في نصابها الصحيح. فقال في احدى خطبه:

لا تغلوا مهور النساء.. فإنها لو كانت مكـرمة في الـدنيا، أو تقوى في الآخرة، كان أولاكم بها النبي ﷺ.. فما أصدق رسـول اللّه ﷺ من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية ونصف..

قال أمير المؤمنين هذا توجيهاً للأمة، وقدم الدليل من أفعـال رسول اللّه ﷺ..

ولكن امـرأة كـانت حـاضـرة في المسجـد، وتحفظ القرآن الكريم، فقالت له: أنى لك هذا يا ابن الخطاب، فقد أعطانا اللّه وأرضـانا.. فقـال تعالى: ﴿وان أردتم استبـدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً. أتأخذونه بهتاناً واثمـاً مبيناً؟﴾.

هـذه صـورة رائعـة من صـور الحكم في الاسـلام.. أميـر المؤمنين يقول رأياً مدعوماً بالسند، وترد عليه امرأة من عامة الناس برأي مدعوم بالحجة.. فلا يجد أمير المؤمنين حرجاً في أن يعدل عن رأيه، ويأخذ برأي هذه المرأة.. ويقول:

« أصابت امرأة وأخطأ عمر. كل الناس أفقه منك يا عمر؟ ».

وبالرغم من أن عمر بن الخطاب عدل عن رأيه، فـإن الفقهاء أخذوا بهذا الرأي. ومصداق ذلـك أن الامام الشـافعي رضي اللّه عنه قال: القصـد في المهر أحب الينـا. وأستحب ألا يزيـد المهر على مـا أصدق رسـول اللّه ﷺ نساءه وبنـاته. وذلـك خمسمـائـة درهم.

وكذلك شيخ الاسلام أحمد بن تيمية، وهو من أجلاء الفقهاء، وصف الذي يدفع أو يطلب صداقاً أكثر من صداق نساء وبنات الرسول ﷺ بأنه جاهل أحمق. . فقد قال:

من دعته نفسه الى أن يزيد صداق ابنته على صداق بنات رسول اللّه ﷺ اللواتي هن خير خلق اللّه في كل فضيلة، وهن أفضل نساء العالمين في كل صفة، فهو جاهل أحمق. وكذلك صداق أمهات المؤمنين. وهذا مع القدرة واليسار. أما الفقير فلا ينبغي أن يصدق المرأة الا ما يقدر على الوفاء به من غير مشقة.

ونحن نرى من كلام الامام ابن تيمية أنه تشدد في عدم زيادة المهر على صداق بنات رسول اللّه ﷺ، وصداق أمهات المؤمنين، مهما يكن المرء غنياً وقادراً على الدفع. .

بعد ذلك نأتي الى موضوع الشبكة والهدايا. . لاقترانهما بالمهر. .

فالمألوف في حياتنا الآن أن المهر والشبكة يتم الاتفاق عليهما معاً عند الخطبة. .

وهما في العرف الجاري مبلغ واحد يقسم الى مهر وشبكة. .

ولذلك فإن ما يجري على المهر شرعاً يجري على الشبكة، في حالة فسخ الخطبة، أو وفاة الخاطب.

وعدول الخاطب عن خطبته أو وفاته أمران قائمان وموضوعان في الاعتبار. .

فكيف يتم التصرف في المهر والشبكة اذا حدث أمر من الأمرين السابقين؟

هل يسترد الخاطب ما دفع، أو يصبح ما دفعه حقاً من حقوق خطيبته؟

هذه المسألة لم تخف على فطنة الفقهاء.. فقد وضعوها في موازين الشرع.. واستنبطوا لها أحكاماً..

ومن بين من أفتوا فيها عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه.. فقد سأله رجل عن موقف المرأة التي تتزوج، ويموت زوجها قبل الدخول بها.. هل لها صداق وعدة وميراث؟.. فقال ابن مسعود لسائله: سأجيبك فيها برأيي. فإن كان صواباً فمن اللَّه.. لها كمهر نسائها. ولها الميراث. ولها العدة.

هذا بالنسبة لمن يموت زوجها قبل الدخول بها.. لها مثل المهر الذي تأخذه من في مثل ظروفها.

وقد أجمع الفقهاء على أنه من حق الخاطب أن يسترد المهر كله في حالة فسخ الخطبة، سواء كان الفسخ من جانبه أو جانب خطيبته، ما دام ذلك قبل عقد القران..

والشبكة تتبع المهر في هذا الحكم.. لأنها ـ كما بينا ـ جزء لا ينفصل عن المهر..

أما الهدايا فقد اختلف فيها الفقهاء..

يرى الحنفية أن الهدايا التي تبقى على حالها كالمعادن والأجهزة وما شابههما مما لا يتعرض للهلاك.. يجب أن يسترده الخاطب، سواء كان العدول عن الخطبة من جانبه، أو جانب خطيبته.. أما الهدايا التي تتعرض للهلاك فليس من حق الخاطب أن يطالب بها..

أما المالكية فيرون رأياً مختلفاً. . وهو أن الهدايا لا ترد الى الخاطب الا اذا كان العدول عن الخطبة من جهة خطيبته. . ولكن اذا عدل هو عن الخطبة، فلا حق له في استرداد الهدايا. . اذ تعتبر في هذه الحالة تعويضاً للمخطوبة عما لحقها من أضرار.

وبما أن الزواج هو سبيل العفة والطهارة والحياة السامية النظيفة. . فإن المهر يجب أن يكون من مال حلال لا شبهة فيه ولا ريبة. .

فلا يصح أن يدفع الرجل صداقاً من ربحه في الخمر، أو المخدرات، أو تجارة الخنازير، أو النقود المزيفة، أو ما حصل عليه من رشاوي، أو ربا. . حتى لا يدنس حياة الزوجية، ويقيمها على أساس باطل. .

وعلى المخطوبة وأهلها أن يتحروا عن دخل الرجل الذي طلب يد ابنتهم. . ولا حرج في هذا. . وأن يفضلوا الرجل المتدين. . حتى يريحوا أنفسهم من مشقة البحث والتحري. .

فالاسلام قد فرض للمرأة صداقاً لكي يؤكد صدق نية الرجل الذي يطلب يدها. .

وجعل لها نصف الصداق اذا لم يدخل بها الرجل. . والصداق كاملاً اذا دخل بها، أو مات عنها. . أو اختلى بها بعد العقد خلوة صحيحة. .

كما جعل من حقها أن ترفض نقصان المهر، اذا وافق وليها على نقصانه، لأن المهر حق خالص لها، وليس لأحد أن يتدخل لاكراهها على النزول عن شيء منه. .

بعد هذا تأتي مرحلة الدخول بـالزوجـة. . فماذ قـال الاسلام عن ليلة الـزفاف. . وكيف يحتفـل بهـا أهـل العـروسين. . وهـل يجـوز أن يتم الزفـاف سـراً. . أو أن العـلانية شـرط من شـروط الزفاف. .

الزفاف بين السر والعلانية

ان الـزفاف يعني اضـافـة بيت اسـلامي جـديـد الى خـريـطة المجتمع . .

ومن واجب المجتمع أن يبارك هذا البيت ويستبشر به . .

والمبـاركـة والاستبشار لا يتمـان في السـر، وانمـا لابـد أن تحوطهما مظاهر الفرح والسعادة . .

ولذلك فإن علانية الزفـاف واجب اسلامي ، وسنـة عن رسول اللّٰه ﷺ . .

قال : أعلنوا النكـاح، واجعلوه في المساجـد، واضربـوا عليه الدفوف .

وكذلك وليمة العرس . . سنة هي الأخرى، ولازمـة من لوازم الزفاف . .

ولا يشترط أن تكون الوليمة فاخرة ومكلفة . . بل يكتفي فيهـا بأبسط النفقات . .

فالاسلام يأمر بـالاعتدال في كـل شيء . . « ولا تجعل يـدك مغلولة الى عنقك، ولا تبسطها كل البسط » .

والاسـلام يـأمـر القـادر بـألا يقبض يـده « لينفق ذو سعـة من سعته » . .

فمن كانت لديـه القدرة على الانفـاق واطعام الفقراء والأهل

والأقرباء فلا بأس من أن يتخذ من هذه المناسبة فرصة لبسط الموائد، شريطة ألا يسرف أو يبذر « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » . .

ولنا في رسول اللّٰه ﷺ أسوة حسنة . . فقد ذبح يوم زفاف السيدة خديجة اليه جزوران، وأطعم منهما الأهل والأقارب والفقراء . .

وحدث نفس الشيء يوم زفاف ابنته زينب الى أبي العاص ابن الربيع . .

ولم تعرض عليه حالة زواج الا وأمر بالاعلان عنها وباقامة وليمة تتناسب مع دخل الزوج ورزقه . .

حدث أن جاء عبد الرحمن بن عوف رضي اللّٰه عنه رسول اللّٰه ﷺ فوجد تغييراً في مظهره فسأله، فأخبره عبد الرحمن بأنه تزوج امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ : أولم، ولو بشاة . .

وعبد الرحمن بن عوف كان من كبار تجار المسلمين وأثريائهم . . وكان يتصدق على الفقراء ببضائع ثمنها آلاف الدراهم . . ومعنى هذا أنه يستطيع اقامة وليمة تذبح فيها عشرات الذبائح، ولكن الرسول ﷺ لم يأمره الا باقامة وليمة فقط، حتى ولو ذبح شاة فيها . . . شاة واحدة . .

الهدف اذن هو أن الوليمة لابد من اقامتها في الزواج . .

ولكن ماذا يحدث الآن بالنسبة لولائم الأفراح؟

هل مظاهر الاسراف التي نراها في الولائم التي تقام الآن في الفنادق والأندية تتفق مع روح الشريعة ومباديء الاسلام؟

هل احضار الراقصات والمغنيات لامتاع المدعوين ليلة الزفاف، واعطاؤهن مئات أو آلاف الجنيهات عمل يرتضيه الاسلام، ويدخل تحت شرط الاعلان عن الزفاف؟

ماذا ننفق اليوم على مظاهر الفرح والزفاف؟

لا أقول هذا بالنسبة لمحدودي الدخل أو الفقراء الذين لا يجدون ما يتزوجون به أو ينفقون.

ولكن أقول للذين بسط اللّٰه لهم في الرزق، وجعلهم في بحبوحة من العيش.. أن ما تنفقونه على الزفاف يتناقض مع آداب الاسلام وقيمه.

فالولائم التي تقيمونها لا يطعم منها الفقراء.. بل انها تقام للواجدين، والذين هم في غنى عنها..

وبعض الولائم لا يكتفي فيها بأطايب الأطعمة وأشهاها.. وانما تقدم فيها الخمور والمحرمات..

أي بيت مسلم هذا الذي يبدأ الزواج بعمل محرم يغضب ما شرعه اللّٰه ونهى عنه؟

كيف في ظل زواج شرعه اللّٰه، وحث عليه، نفعل ضد ما شرعه اللّٰه ونهى عنه؟

انا بهذا نستخدم نعم اللّٰه في معصيته.. ونفعل ما يرضى أهواءنا ونزواتنا..

لو أننا أنفقنا الأموال التي نبعثرها ذات اليمين وذات اشمال في الولائم الفاخرة، والراقصات والمغنيات وباقات الورود التي تلقى بها في صناديق القمامة، والصور المنشورة في الصحف.. لو أنفقنا جانباً منها في اعانة العاجزين عن الزواج وتيسير وسائله

لهم، لحققنا لوناً من التكافل الذي يأمرنا به الاسلام . .

إن علانية الزفاف عمل اسلامي أصيل، ولكن العلانية بالصورة التي نراها الآن، عمل يرفضه الاسلام . .

فالاسلام لم يحرم الغناء في ليلة الزفاف . . بل حث عليه . . ولكن بشرط أن تغني النساء للنساء، والرجال للرجال . .

والرسول ﷺ حين علم بفرح في احدى دور الأنصار بعث السيدة عائشة رضي اللّه عنها الى هناك لتشاركهم في الفرحة، وتهنئهم بالزفاف . . بل انه علمها كلمات تعبر عن استبشار الرسول ﷺ، وفرحته وسروره بالزفاف . .

كان ﷺ يقدم المنهج الذي يجب أن نأخذ به في كل أمور حياتنا . .

ويرسم الطريق الذي ينبغي أن نسير عليه . . حتى لا ننحرف أو نزيغ . .

وقد تعلم نساء الصحابة كيف يحتفلن بالزفاف، ويتأدبن في حضوره بأدب الاسلام . .

لم يكن النساء يختلطن بالرجال، ويرقصن أمامهم، ويغنين لهم، تحت شعار الفرحة بالعروسين . .

ولم يكن الزفاف فرصة للقاء المحرم، وشرب المحرم، وارتكاب المحرم . . كما يفعل البعض منا الآن . .

كثير من حفلات الزفاف التي تقام الآن، ليست اعلاناً عن الزواج، بقدر ما هي اعلان عن السفه وانتهاك الحرمات والخروج على مبادىء الدين الحنيف .

ولا تشابه بينها وبين الحفلات التي كانت تقام في دور الأنصار أو دور المهاجرين . .

فالاسلام أمر باقامة وليمة للزفاف كتعبير عن الفرح بانشاء بيت مسلم . .

وأمر في الوقت نفسه بالاعتدال في اقامة الوليمة . . مع أنها في البيئة العربية كانت غير مكلفة . . اذ كان العربي يقتني الشاء والابل . . ولا يستدين لكي يقيم وليمة . .

أما في العصر الحاضر فإن العروس تزف الى عريسها وينتهي الأمر . .

ولكن تبقى بعدها مخلفات الديون والأقساط الشهرية وينوء بها الآباء، وقد يتحمل جانباً منها العروسان . .

وقد يستمر سداد الديون بضع سنوات يمضيها الآباء في عنت ومشقة . . وكذلك العروسان . . وذلك كله بسبب الاسراف الذي نهى عنه الاسلام . .

ونحن لا ندعو الى الغاء حفلات الزفاف، ولكن ندعو الى الاعتدال فيها . .

ولا نطالب بأن يكون الزفاف سراً . . لأن العلانية فيه مما أمر به الاسلام . .

فالزواج عمل مشروع، ويجب ألا يتخلله شيء يخالف الشرع . .

والزواج عفة وطهارة واحصان . . وينبغي أن يبدأ بداية وضيئة فيها وسامة هذه الخلال . .

وقد كان نساء العرب يعلمن بناتهن قبل الزفاف أسلوب معاملة الزوج. . في عبارات مهذبة لا تجرح الحياء، ولا تثير الخجل عند الفتاة. . وكلنا يعلم الوصية التي أوصت بها أمامة بنت الحارث زوجة عوف بن محلم الشيباني ابنتها يوم الزفاف.

قالت لها:

أي بنية. انك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت، الى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه. فكوني له أمة، يكن لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً، تكن لك ذخراً.

أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواضع عينه وأنفه. فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم الا أطيب ريح. واعلمي أن الماء أطيب للطيب الموجود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود.

وأما الخامسة والسادسة فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ بماله، والرعاية على حشمه وعياله. فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة فلا تفشين له سراً، ولا تعصين له أمراً. فانك ان أفشيت سره لم تأمني غدره، وان عصيت أمره أوغرت صدره.

ثم اياك والفرح ان كان ترحاً، والكآبة بين يديه ان كان فرحاً.

وقد أثمر هذا الزواج الحارث بن عمرو جد امريء القيس الشاعر..

هذا ما كان العرب يفعلونه يوم الزفاف.. تعليم العروس منهج الحياة الزوجية السعيدة.. حتى لا ينفر منها زوجها.. أو يحس نحوها بالاشمئزاز من أي شيء..

هذه الوصية أهم للزوجة من أفخر الرياش، وأغلى الأثاث، وأبهج القصور، فالرياش تبلى جدته، والأثاث يستهلكه القدم، والقصور تذهب بهجتها على الأيام.

أما رونق الحياة الزوجية فيتمثل في الاستقرار والمحبة والمودة بين الزوجين.. حتى ولو كان طعامهما خبزاً جافاً. ومسكنهما كوخاً متواضعاً..

فماذا يحدث عندما يلتقي الزوجان الجديدان في عش الزوجية، وما واجب كل منهما تجاه الآخر.. حتى لا يفترقا الا بالموت..

الزوج . . وقيادة سفينة الحياة

الزواج أشبه بسفينة تمخر عباب الحياة . . يقودها الرجل، وتعاونه المرأة في قيادتها . .

والملاح اذا لم يكن ماهراً وحكيماً في القيادة، لا تلبث السفينة أن تغرق، ويغرق معها الركاب جميعاً . . والركاب بالطبع هم الزوجة والأولاد . . والزوج سيكون أول الغارقين . .

ومن هنا نفهم الحكمة في اعطاء كل من الزوج والزوجة حريتهما كاملة في الاختيار . . حتى لا تصطدم سفينة الزواج بالصخور، وتتعرض للأعاصير . .

فالزيجات الفاشلة سببها سوء الاختيار، أو وقوع أحد الزوجين تحت الضغط والاكراه . .

وكما أنه لا اكراه في الدين . . فكذلك لا اكراه في الزواج . .

هذا هو حكم الاسلام . .

وهو حكم صدر من اللّٰه تبارك وتعالى . . وما صدر من اللّٰه فلا مناقشة فيه ولا جدال . .

وقد تحدثنا فيما سلف عن الخطوات التي تسبق الزفاف . . وبينا ـ في حدود فهمنا وثقافتنا ـ الحكمة الكامنة وراء كل خطوة . . عارضين اياها من منظور اسلامي بحت . .

والآن وقد التقى الزوجان في عش الزوجية، وتحقق الحلم

الكبير الذي راودهما منذ فكر الرجل في اختيار شريكة حياته، وصارحها أو صارح أهلها برغبته..

ما هي واجبات الزوجة حيال زوجها، وهي التي اختارها من بين مئات النساء، لأنه توسم فيها أن تعاونه على قيادة سفينة الحياة في أمن وهدوء..

ان أهم واجباتها جميعاً أن تكون سكناً للرجل.. غذاء لروحه ووجدانه..

فهي الاشراقة الجميلة اذا أظلمت في وجهه الحياة.

والبسمة الحانية اذا تجهم له الزمن.

والوسادة المريحة اذ أقضت مضجعه الخطوب..

والصوت الشجي العذب اذا صرصرت في أذنيه الرياح..

المرأة خلقت من نفس الرجل **﴿خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة﴾**..

والنفس الطيبة لا يمكن أن يتنكر جزء منها لجزء آخر..

وقد جعل الاسلام المرأة الصالحة أجمل وأروع وأغلى ما في الحياة..

فالرسول ﷺ يقول: الدنيا متاع. وخير متاعها المرأة الصالحة.

ثم وصف صلاحها في أكثر من حديث.. فقال ﷺ:

التي ان نظرت اليها سرتك. وان أمرتها أطاعتك. وان غبت عنها حفظتك في عرضها ومالك..

كل هذه واجبات على المرأة وحقوق للرجل..

فمن حق الزوج على زوجته أن تتأنق له وتتزين وتبدو في أروع مظهر، وفي أتم رونق..

أما أن تلبس أردأ الثياب في بيتها، وتحتفظ بأغلاها وأكثرها جاذبية للخروج بها في الشارع، لتلفت أنظار الرجال، وتثير غرائز الشباب، فهي ولا شك امرأة تتنكر لمبادىء دينها، وتلقى بنفسها في أحضان الفتنة والاثارة، وما أبشع هذا المسلك في نظر الاسلام!!

ومن العجيب أن بعض النساء يشتكين من اهمال أزواجهن لهن، ومن نفورهم من البيت، وتنسى المرأة أنها بمظهرها الرديء في بيتها قد دفعت الزوج الى هذا الاهمال..

فالرجل يحب الجمال بطبعه.. واذ افتقده في بيته، أدركه الملل، وهرب الى الشارع..

وهنا تتجلى العبارة المشرقة الوضيئة التي قالها الرسول في الزوجة الصالحة: « **التي ان نظرت اليها سرتك** »..

ثم تمضي في بقية الحديث الشريف: « **وان أمرتها أطاعتك** ». فنجد أنفسنا أمام صفة كريمة من الصفات المثالية في المرأة.. فلا شك أن طاعة الزوجة لزوجها، فضلاً عن أن هذا تعبير عن لطافة أنوثتها، أمر يحبب فيها الرجل، ويخضعه لطلباتها، ويجذبه اليها.. ويزيد من روابط قلبه بقلبها..

ويختم الرسول صفات المرأة الصالحة بهذه العبارة: « **وان غبت عنها حفظتك في عرضها ومالك** »..

معنى هذا أنها في قمة العفة والطهارة والحفاظ على شرف الزوج وماله في غيبته..

فلا تفتح بيتها لانسان مهما تكن صلته بزوجها.. حتى ولو كان أخاه..

ولا تنفق قرشاً من مال زوجها الا فيما أخذت أذناً به..

ومن طاعة المرأة ألا تهجر فراش زوجها.. والا تعرضت لسخط اللّه عز وجل..

فالرسول ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده. ما من رجل يدعو امرأته الى فراشه فتأبى عليه، الا كان الذي في السماء ساخطاً عليها، حتى يرضى عنها».

وقد بين النبي ﷺ حق الزوج على زوجته حين قالت له امرأة من خثعم: يا رسول اللّه. أخبرني ما حق الزوج على الزوجة. فإني امرأة أيم. فإن استطعت والا جلست أيما. قال: ان حق الزوج على زوجته.. ان سألها وهي على ظهر قتب ألا تمنعه نفسها. ومن حق الزوج على الزوجة ألا تصوم تطوعاً الا بأذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت. ولا يقبل اللّه منها صومها.. وألا تخرج من بيتها الا باذنه. فإن فعلت لعنتها ملائكة السماء حتى ترجع.. قالت: لا جرم، لا أتزوج أبداً..

قدم الرسول في هذا الحديث ثلاثة حقوق للزوج على زوجته.. هي:

ـ ألا تمنعه نفسها حتى ولو كانت على ظهر دابتها.. أي في هودجها.

ـ ألا تصوم تطوعاً وهو حاضر معها الا بعد استئذانه.

ـ ألا تخرج من البيت لأي سبب الا اذا أخذت أذناً منه.

والأحاديث الواردة في حق الزوج على زوجته كثيرة، وقد اكتفينا بهذا الحديث، لأنه يحدد ملامح الطاعة، ويرتب العقوبة التي تنال المرأة المتمردة أو الناشز..

فإذا تمنعت المرأة في الوقت الذي يطلبها فيه زوجها، رغبة منها في اذلاله، فإن هذا يثير ثائرته عليها، وقد تتحول ثورته وانفعاله الى تصدع في بناء الحياة الزوجية.

وقد أمر الرسول ﷺ بأن تطيع الزوجة زوجها اذا دعاها حتى ولو كانت راكبة بعيرها أو دابتها.. يعني في أدق الظروف..

أما صوم التطوع فإنه قد يحد من نشاطها في خدمة الزوج والأولاد.. وقد يكون سبباً في عدم اقترابه منها. فإذا عصت زوجها وصامت بدون رضاه، فإنها لا تجني الا لعنة الملائكة.. لأنها قصرت في أداء واجبها البيتي.. وهو وظيفتها الأساسية في الحياة..

وطاعة الزوج عبادة.. بل ثواب طاعة الزوجة لزوجها يقارب ثواب جهاد الرجل في ميدان القتال..

فالمرأة المسلمة تقدم طاعة زوجها على أي شيء الاا اذا كان يأمرها بمعصية اللّه عز وجل.. فإنها في هذه الحالة لا تستجيب لأمره، ولا تخضع لهواه.. اذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومن حق الزوج على زوجته ألا تخرج من البيت الا باذنه

حتى ولو كان الخروج لزيارة أبيها المريض أو أمها المريضة..

وأن تخرج محتشمة غير متبرجة، ولا متعطرة، ولا تشترك في حديث مع الرجال في وسائل المواصلات، حتى ولو كان الحديث يخص النساء..

فالمرأة الطائعة اللينة الجانب يضعها الاسلام في أعلى مراتب القرب من اللّه.. تفتح لها أبواب السماء اذا دعت، وتفتح لها كل أبواب الجنة تدخل من أيها شاءت يوم القيامة..

يقول الرسول ﷺ:

اذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت..

أي مرتبة أعلى من هذه المرتبة؟ ولكن ثمنها أن تحافظ على صلاتها وصيامها وعفتها.. وتطيع زوجها..

وما دامت المرأة متمسكة بدينها وخلقها، فإنها تصبح جنة الرجل..

فإذا سألنا أنفسنا: لماذا نتزوج؟ نجد الجواب حاضراً..

الجنة تحت أقدام الرجل الذي أحسن اختيار زوجته، وأحسنت هي بالتالي معاملته..

جنة الدنيا أن يعيش الرجل مع زوجة ذات دين وخلق.. تؤنسه اذا شعر بالوحدة.. وتكفكف آلامه وأحزانه اذا أصابه مكروه..

جنة الدنيا بيت هادىء سعيد يتعاون فيه الزوجان على قيادة سفينة الحياة الى بر الأمان..

وقد شدد الرسول ﷺ على ضرورة رعاية الزوجة لزوجها. .

وأعلمها أن السجود، وهو منتهى الخضوع، لو كان يجوز لغير اللّٰه تبارك وتعالى، لجاز في مجال الحياة الزوجية، وهو أن تسجد الزوجة لزوجها. .

ولكن ماذا يعني قول الرسول ﷺ:

«لو أمرت أحداً بالسجود لغير اللّٰه لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»؟

يعني هذا الحديث أن تكون الزوجة في طاعتها لزوجها، وانصياعها لأوامره، وتلبيتها لمطالبه، وحبها اياه، أشبه بالساجد في خضوعه واستسلامه للّٰه عز وجل. .

وهذه الطاعة لا تتعارض مع كبريائها وشممها وكرامتها. . لأنها طاعة المحب، وليست طاعة الكاره. .

فهناك فرق بين أن أفعل أمراً عن حب وطواعية، وأن أفعله عن اجبار وارغام. . بين أن أؤدي عملاً ونفسي به راضية، وعليه مقبلة، وأن أؤدي نفس العمل تحت سوط التهديد والوعيد. .

ان طاعة الزوجة لزوجها تحمل معنيين:

- معنى ارضاء اللّٰه، لأنه أمر بهذه الطاعة، وجعلها فرضاً على المرأة.

- ومعنى محبة الزوج، والمحبة هي الرباط الالهي الذي يربط بين قلبيهما. .

وبقدر ما شدد الاسلام على طاعة المرأة لزوجها، بقدر ما حذرها من النشوز. . .

وحتى في حالة نشوزها فإن الاسلام وضع قواعد لمعاملتها، بدأها بقاعدة الموعظة الرقيقة، ثم تـدرج الى الشدة قليـلاً، لعلها ترتدع، ثم أمر بضربها ضرباً غير مبرح. قال جل شأنه:

«واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً»..

الأمر الالهي في معاملة الناشز واضـح وصريـح لا يحتاج الى تـأويل.. فعلى الـزوج أن يعظهـا أولاً، ويبين لها مغبـة النشـوز، ونتـائج نفـورهـا، فـإن تـأبت وركبت رأسهـا، فعليـه أن يهجـر المضجع، مظهـراً غضبه واستيـاءة منها. فـإن استيقظ ضميرهـا، وثابت الى رشدهـا، وعرفت حق زوجهـا عليها، فعلى الـزوج أن يصفح عنها ويغفر لها خـطأها، حـرصاً على المـودة بينه وبينهـا، ولكن ان لجت في العناد، وأصرت على موقفها، فإن اللّٰه أباح له أن يضربها حتى تفيق من غمرة عنادها..

ولكن كيف يضرب الرجـل امرأتـه اذا وصل الأمـر بينهما الى حد الضرب..

ان الاسـلام حتى في هذه الحـالة، وهي ذروة الغضب، أمـر بالرفق والرحمة والشفقة..

فـالرسـول ﷺ علمنا ألا نضـرب النساء على وجـوههن، لأن الـوجه مجمـع المحاسن، وليس من حق انسـان أن يشـوه جمـالاً خلقه اللّٰه، لأن جمال المـرأة هو متـاع الرجـل، ومن الحماقـة أن يضيع الرجل متاعاً منحه اللّٰه اياه..

أمـا كيف يضرب الـرجل امـرأته النـاشز فقـد قال ابن عبـاس

رضي اللّه عنه: يضربها بالسواك.. والسواك لا يترك آثاراً سيئة في الجسد.. كما أن الضرب الذي أمر اللّه به هو للردع فقط.. كالمعلم حين يردع تلميذه الشقي، حتى لا يفسد نظام الفصل.. فهو يضربه للتأديب والتهذيب برحمة الأب، ورأفة الأستاذ، وحنان المعلم.

ثم أن القرآن يأمرنا بأن نعامل المرأة بالحسنى اذا أحست خطأها، وأقلعت عنه.. «وان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً».

والاسلام يحث على الاسراع بالصلح بين الزوجين، حتى لا يخيم الخلاف بأشباحه المقيتة في البيت.. فالمرأة حتى وان هجرت بيت الزوجية غاضبة من زوجها.. لا تشعر بالاستقرار في بيت أبيها.. لأن طعم الحياة الزوجية يسرى في كيانها كله.. وهو بالطبع يختلف عن طعم الحياة في أي مكان آخر، حتى ولو كان البيت الذي ولدت وتربت فيه..

ولعل أقسى نوع من أنواع النشوز أن ترفض الزوجة الانتقال مع زوجها الى مكان عمله. فهو قد تزوج شريكة عمره، وأليفة حياته، لتعيش معه على السراء والضراء.. فإذا كانت الزوجة من القاهرة مثلاً، وعين الزوج باحدى شركات البترول في الصحراء الغربية، فعلى الزوجة أن تبدي سرورها بالحياة في الصحراء بجوار الزوج.. وألا تضيق بالبعد عن أسرتها.. وأن تعتبر الزواج «فطاماً» عن الأهل، ولها في نساء المسلمين الأوائل قدوة.. فلم تكن الواحدة منهن تتأبى على السفر مع زوجها الى أي بلد.. وتؤنسه في غربته حتى يؤوب. وقد هاجر بعض نساء الصحابة مع أزواجهن الى الحبشة في بدء الاسلام، ثم هاجرن مرة ثانية الى

المدينة، دون أن تشعر الواحدة منهن بغضاضة أو استياء.

والزوجة الناجحة تمثل مجلس وزراء في بيتها. . وزوجها هو رئيس المجلس. .

فهي وزيرة تربية وتعليم، لأنها تشرف على تربية وتعليم أبنائها، باعتبارها أكثر التصاقاً بهم، ووقتها يتسع لرعايتهم. .

وهي وزير اقتصاد، توازن بين دخلها ومصروفاتها، فلا تسمح بخلل في ميزان المدفوعات. ولا تستدين للكماليات.

وهي وزيرة تموين، تشتري ما يلزمها من السلع، وتوزع مخصصات الأنفاق على أيام الشهر، فلا تشعر بضيق ذات يدها في آخره. . وانما يكون لها معدل معتدل في الأنفاق.

وهي وزيرة شؤون اجتماعية، تجعل علاقاتها طيبة بأسرة زوجها، وكذلك جيرانها في البيت وزملائها في العمل.

وهي وزيرة صحة تسارع بعلاج أطفالها اذا أصابت أحدهم أزمة مرضية، حيث تبادر بعرضه على الطبيب.

وهي وزيرة لشؤون الأزهر، تهتم بتحفيظ أولادها القرآن الكريم في المقاريء القريبة من بيتها، وتحثهم على الصلاة في أوقاتها، وتعلمهم البر بالفقراء والمساكين.

وهي وزيرة عمل، ترفو الثياب، وتتعلم الحياكة، وتقوم بكي الملابس وتنظيفها، واعداد البيت وتنظيمه وترتيب أثاثه. .

وهي الى جانب هذا كله مصدر امتاع وأنس للرجل. . فمهامها اذن فوق ما يتصور العقل، والتهوين من شأن هذه المهام اجحاف ما بعده اجحاف. .

ولـذلك كـان الطلاق أبغض الحـلال عنـد اللّه. . ويهتـز لـه عرش الرحمن.

وكانت الجنة تحت أقدام الأمهات.

وكانت أبواب السماء مفتوحة لدعاء المرأة الصالحة.

مكافأة عادلة على قدر الجهد، وثواب جزيل على قدر العمل والأداء. .

بقي أن نعـرف واجبات الـزوج تجاه زوجتـه، باعتبـاره ربـان السفينة، ورئيس مجلس وزراء البيت.

كيف يعامل الرجل زوجته

الحياة الزوجية ليست مسرحية يؤدي فيها كل من الزوجين دوره وينصرف الى حال سبيله، ثم لا يبقى في وجدانه شيء من هذا الدور.. وانما هي واقع لا خيال، وحقيقة لا تصور.. وحركات كل من الزوجين نابعة من عقله وقلبه ونفسه وشعوره.

والمراحل التي سبقت الزفاف كانت العواطف تصبغ فيها تصرفات الخطيبين، وكانت مراحل مجنحة بعيدة عن أرض الواقع.. أما بعد الزفاف فلم يعد شيء مخبوءاً في طباع الزوجين..

كل منهما يتصرف وفق ما تمليه عليه فطرته وتربيته وثقافته وبيئته..

والاسلام لم يترك كلا الزوجين يتصرف بلا ضوابط ولا حدود، وانما وضع ضوابط وحدوداً لما ينبغي أن تكون عليه الحياة الزوجية، حتى لا تجنح سفينتها، أو تهتز اهتزازاً عنيفاً أمام الأعاصير والرياح..

وقد تحدثنا فيما سلف عن الضوابط والحدود الخاصة بالزوجة.. وتقدم في هذا الفصل حقوق المرأة وواجبات الزوج تجاهها، وكيف يعامل الزوج زوجته..

انه من محاسن الاسلام ومزاياه أنه وزع أعباء الحياة الزوجية بين الرجل والمرأة بمقادير متعادلة، لا ظلم فيها ولا اجحاف..

منح الرجل القوامة على امرأته ليكفل لادارة البيت قيادة أمينة. . قيادة دستورها الرحمة والمودة والألفة والعطف والايثار. .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل اللّه بعضهم على بعض ».

والرجل بحكم تكوينه قادر على تحمل الأعباء أكثر من المرأة. . ولذلك أسند اليه الاسلام أمر القيادة، لأنه يحتكم الى عقله، لا الى عاطفته، ويسوس الأمور بحكمة واقتدار. .

وليس هذا عيباً في المرأة، ولا غضاً من شأنها، فهي بحكم أنوثتها وحساسيتها المفرطة، لا تصلح لرياسة البيت، وان كانت تصلح لما يعادل الرياسة في كثير من الأمور. .

فمن فهم القوامة على أنها جبروت وتسلط فقد أخطأ فهم الاسلام. .

فالرسول ﷺ، وهو المثل الأعلى لكل مسلم، كان أرق الناس في معاملة نسائه، ولا يجد غضاضة في استشارتهن اذا حزبه أمر، وكان يقابل غضبهن بالعفو والتسامح. .

وهو القائل: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي. .

فماذا كان يفعل الرسول ﷺ في بيته لكي تتأسى به، ويعطي كل منا زوجته حقها، حتى لا يكون خارجاً على سنة الرسول. .

تعالوا نستمع معاً الى السيدة عائشة رضي اللّه عنها وهي ترد على من سألها عن الرسول ﷺ في بيته. قالت:

انه يكون في مهنة أهله: يقم بيته، ويرفو ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته. .

أي يقوم بكل أعمال البيت من نظافة، وترقيع الثياب،

واصلاح ما تقطع من النعل، وحلب اللبن من الشاة. .

ماذا كان في البيئة العربية من أعمال في البيت غير هذه الأعمال؟

كان الرسول ﷺ يؤديها عن طيب خاطر. . ولا يجد حرجاً ولا غضاضة في ذلك. .

أين نحن منه الآن؟

هل نساعد زوجاتنا في تنظيف البيت، وترتيب الأثاث، واعداد الطعام وطهيه وتقديمه، وغسل الأطباق بعد الأكل؟

أم يجلس الواحد منا أمام التليفزيون يستمتع ببرامجه، ويزجي وقت الفراغ حتى تنتهي زوجته من طهي الطعام وتقديمه. وأحياناً يقطع الوقت بقراءة الصحف، ويتأفف اذا تأخرت الزوجة في تقديم الطعام. .

ان ما نفعله هو عدوان على حق المرأة، وتنكر للسنة، وخروج عليها.

فلو أننا تأسينا برسول اللّه ﷺ، لفعلنا في بيوتنا مثل ما كان يفعل في بيته، ولاقتدينا به في معاملة زوجاتنا. . وبخاصة أن كثيراً من الزوجات موظفات الآن، ويعدن مرهقات من العمل، لأنهن يقمن بدور مزدوج: دور الموظفة في الخارج، ودور ربة البيت في منزلها. . بينما الزوج له دور واحد فقط هو وظيفته.

وأحب أن تتسع صدور الرجال لما أقوله عن حقوق المرأة وواجباتهم نحوها. . فالنساء شقائق الرجال. . ورعايتهن رعاية محبة ومودة وألفة. . ولا شك أن الرجل يأخذ من المرأة أكثر مما

تأخذ المرأة منه.. ولعل هذا نفهمه من وصية الرسول ﷺ في خطبة الوداع: استوصوا بالنساء خيراً.. أي يوصي بعضنا بعضاً بالنساء..

فتصور مجتمعاً يتواصى بالنساء خيراً.. لابد أن للنساء مكانة عظمى، وأهمية كبرى بالنسبة لهذا المجتمع..

ومن الذي يأمرنا بالتواصي؟

انه رسول اللّٰه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، بل يتكلم دائماً بالهام من ربه..

ونمضي مع حقوق النساء، كما وضعها المشرع الأعظم، صلوات اللّٰه وسلامه عليه.

سأله يوماً معاوية بن حيدة:

ـ ما حق زوجة أحدنا عليه؟

هذا السائل يريد أن يعرف حق زوجته حتى لا يظلمها، فيتخاصما أمام اللّٰه يوم القيامة.

ويريد في الوقت نفسه أن يعرف كل مسلم حق زوجته عليه.. ليضمن للنساء العدل في بيوتهن..

فقد كان الصحابة يستفسرون من الرسول عن كل شيء.. حتى عن صغائر الأمور، لكي لا يرتكب أحدهم لمما أو هنة هينة..

فماذا قال الرسول لمعاوية بن حيدة..

رتب له حق المرأة في خمسة أشياء.. قال له:

ـ أن تطعمها اذا طعمت، وتكسوها اذا اكتسيت، ولا تضـرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر الا في البيت.

دستور كامل من القيم والآداب في معاملة الـزوج لزوجتـه. . ثم أن هـذا الدستـور له مـذكرة تفسيـرية أوردهـا الرسـول ﷺ في أحاديث شتى. .

فتوفير الـطعام للزوجـة هو واجب الـرجل. . ولكن أي طعـام هذا الذي يوفره لهـا. . انه نفس طعـامه. . أن تأكل الزوجـة مما يـأكل منـه زوجها. . فـاذا تناول طعـاماً خـارج بيتـه، أو شيئـاً من الحلوى، أو مشروباً لذيذاً، فلابد أن يصحب معه نفس الطعام أو الحلوى أو المشروب الى بيته. . لتتناوله زوجته.

وهو بهذا لا يكسب حب زوجتـه فقط، وانما يكسب رصيـداً جـديداً في حسنـاته. . فـطعام المـرأة صـدقـة. . فضـلاً عن أنـه واجب. . وقد ورد هذا في المـذكرة التفسيـرية للحـديث السالف الذكر. .

يقول المعصوم صلوات اللّه وسلامه عليه:

ـ دينار أنفقته في سبيـل اللّه، ودينار أنفقتـه في رقبة، ودينـار تصـدقت به على مسكين، ودينـار أنفقته على أهلك. . أعـظمهـا أجراً الذي أنفقته على أهلك. .

ما معنى هذا؟

معناه أن كل مال تنفقه على بيتك يكون أجره عند اللّه أعـظم مما تنفقه في الجهـاد وتحريـر الرقيق واطعـام المساكين الـذين لا يجدون ما ينفقون. .

والأنفاق على الزوجة لم يتركه الاسلام بدون ضوابط أو معايير. فقد يكون الزوج غنياً، ويقتر على امرأته.. وقد نبه القرآن الى هذه الخلة، فقال اللّه تعالى: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾.. أي من كان عنده فضل مال فليوسع على أهله في النفقة..

ولكن ما موقف الاسلام من الزوج الذي يقتر على زوجته. وهو مبسوط له في الرزق؟

الاسلام يسمح للزوجة التي يضن عليها زوجها بالتوسعة في الأنفاق، وهو قادر على ذلك، أن تأخذ من ماله دون أن يعلم لكي تنفق على البيت، بشرط أن تأخذ بالمعروف، فلا تسرف ولا تبذر..

ودليلنا على هذا أن رسول اللّه ﷺ سألته هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان عن المرأة تأخذ من مال زوجها في غفلة منه لتنفق على البيت، لأنه ضنين بالمال، فأجاز لها الرسول ﷺ أن تأخذ، ولكن بالمعروف..

ثم ان اجتماع الأسرة على المائدة أمر شرعه الاسلام وحض عليه، ومداعبة الزوجة على الطعام سنة من سنن الرسول ﷺ. فهو القائل: ان الرجل يؤجر على اللقمة يرفعها الى في امرأته.. أي من واجب الزوج أن يضع اللقمة في فم امرأته أثناء تناولهما الطعام، تعبيراً عن الحب والحنان.

وكما أن الاسلام أمر الغني ببسط اليد، والأغداق على الأهل، دون اسراف، فكذلك ألمع الى أن الفقير لا يلزمه الا أن ينفق في حدود طاقته: «ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه اللّه، لا يكلف اللّه نفساً الا وسعها».

هذه العبارة القرآنية موجهة الى الزوجين معاً.

فليس من واجب الزوج أن يستدين ويشتري لزوجته الكماليات..

وليس من حق الزوجة أن تطالب زوجها بما لا يطيق..

* * *

بعد هذا ننتقل الى النقطة الثانية من حديث الرسول ﷺ.. وهي كساء المرأة..

والكساء الذي عناه الحديث الشريف ليس الثوب الفاخر أو الرداء الثمين..

وانما كل ما يستر الجسد، سواء كان خزاً، أو نسيجاً غليظاً..

بيد أنه من حق المرأة أن تختار ثوبها.. لأنها أدرى من الرجل بما يناسبها من الألوان والأذواق..

من حقها أن تطلب من الرجل أن تذهب معه الى السوق، وتشتري الثوب اللائق لها.. ومن واجب الرجل أن يجيبها الى هذا الطلب.. بل ان عليه أن يعطيها ثمن الثوب لتشتريه بنفسها. فإذا كان الاسلام قد أعطاها حرية اختيار زوجها.. فلا يجوز لزوجها أن يحرمها حرية اختيار ثوبها..

الا أنها يجب أن ترضي في الرجل غروره، فتستشيره في الثوب قبل أن تشتريه..

ولا شك أن يد الحب ستمتد رقيقة حانية الى مشاعر الزوجين

في تلك اللحظة. فيجد كل منهما نفسه ذائباً في ذوق الآخر، وممتزجاً به. . وملتحماً قلبه بقلبه.

والأجدر بالرجل ألا يحكم ذوقه في ثوب المرأة. . لأنها ذات ذوق حساس في معرفة الألوان، ومدى تناسقها. . وقل من الرجال من يتساوى مع النساء في هذا الشأن. .

وما دمنا بصدد كساء المرأة فلا يفوتنا أن نتحدث عن الزي الاسلامي الذي يحمي المرأة من النظرات الظامئة اللهفى، ويحمى الرجل من المفاتن المثيرة. .

فما دامت المرأة قد أعطيت حريتها في اختيار زوجها وثيابها، فلا يصح أن تستغل هذه الحرية بالنسبة لثيابها، وتلبس ما يثير غريزة الرجال. . ويوقد شهواتهم، ويحرك فيهم رياح المعصية.

ان من حقها أن تلبس ما يشف عن مفاتنها في بيتها، ولكن ليس من حقها أن تخرج به الى الشارع، أو حتى الى بيوت الجيران. . فضلاً عن الذهاب به الى العمل. .

واذا وافق الرجل على خروج امرأته بثوب شفاف يصف مفاتن جسدها، فقد مهد لها طريق الرذيلة، وأعانها على السير فيه. .

ولا يلوم الا نفسه اذا سقطت امرأته في الوحل، أو غرقت في الدنس. .

ان الاسلام أمره بكسائها لستر جسدها من رأسها حتى أخمص قدميها. . ولم يسمح لها الا بكشف الوجه واليدين فقط. .

كما لم يسمح لها بالتعطر الا لزوجها. . فاذا تعطرت ليشم

الـرجال رائحتهـا فهي زانية وكـل عين تتبعتهـا بنـظراتهـا الـزائغـة زانية . .

لأن النظرة تصيب القلب بسهم قاتل، ولا يتوقى الانسان هذه الاصابة الا بغض البصر.

ومصداق ذلك الحديث الشريف:

« النظرة سهم مسموم من سهام ابليس. فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث اللّه قلبه حلاوة يجدها الى يوم يلقاه ».

فغض البصـر عن النسـاء يتبعـه غض القلب عن الشهـوات وغض العقل عن التفكير في السوء . .

فلو أن المرأة ارتفعت بانسانيتها عن أن تكون بضاعة معروضة على الرجال، ونـزهت أنوثتهـا عن أن تكون مثـا[illegible]ـن وانحراف، وبدت محتشمة غير كاشفة عن صدرها وساقيها، فانهـا تعين على طهارة المجتمع وعفته وسموه وخلوه من ثمرات المعصية . .

أما أن تلبس ثيابـاً تبدو فيهـا لا هي كاسيـة ولا هي عاريـة . . كأن تجعل فتحة الصدر واسعة، وتحلى عنقها بسلسلة تتدلى على نهـديها بفصـوص معدنيـة ذات بريق، ويكـون ثـوبهـا من الضيق والقصـر، بحيث لا يستر من جسـدها الا أقـل القليل، ثم تختلط بالرجال، وهي على هذه الصورة من الاثارة والفتون، فإنهـا تكون أخلص مسـاعـدة لابليس في بث سمـوم الفسـاد والانحـلال في المجتمع . .

وإذا كـان من حق المرأة على الـرجـل أن يحميهـا حتى ولـو قتـل، وهو يـدافع عنهـا، ويموت شهيـداً، فإن من حقـه أيضاً أن

يحمي المـرأة من نفسهـا. . من رغبتهـا الجـامحـة في اثـارة الـرجال. . من قمـع غـرورهـا ومحـاولتهـا أن تكـون محط أنـظار المشاهدين.

ولا يتأتى هذا الا بأمرين:

- ألا يمكنها من الثياب التي تهين كرامته، وتجرح رجولته، وتدنس سمعته. .

وتصرفه هذا يتفق مع مبادىء الاسلام وقيمه وآدابه. .

- أن يجعلها قعيدة بيتهـا حتى لا تحوم حـولها ذئـاب البشر، لأن محاصرة النيران أول عمل يقوم به رجال الأطفاء. .

فالمرأة تفعل بعقل الـرجل مـا تفعله الخمر تمـاماً. . تـذهب بلبه، وتهيج فيه النزوة الطائشة. .

ولذلك فإن كثيراً من الجرائم يحدث بسبب امرأة. .

ومن أصدق وأعمق ما قرأت حديث شريف يقول:

- أخوف ما أخاف على أمتي النساء والخمر. .

ولا تكون المرأة في فسادها وافسادها كالخمر الا اذا خـرجت عن حدود الحشمة، وهتكت حجاب الوقـار، وانهمكت في اغراء واغواء الرجال. .

والمسؤولية لا تقع عليها وحدها، وانما تقـع بالـدرجة الأولى على زوجهـا. . لأننا لا نتكلم الآن على النسـاء. . كـل النسـاء، وانما حديثنا مقصور على المرأة المتزوجة فقط. .

فـالزوج الـذي يعطي زوجتـه الفرصـة أن تلبس ما راقهـا من

الثياب، دون اعتبار لمباديء دينها، وتتعطر بالروائح النفاذة التي تسكر الأنوف، وتتدلل في مشيتها كأنها راقصة، ولا يغار على زوجته.. هذا الزوج وصفه الرسول ﷺ بأنه ديوث!!

والديوث لا يجد ريح الجنة، وان كان ريحها يوجد على مسافة خمسمائة عام.

فإذا كان من حق الزوجة أن يطعمها زوجها اذا طعم، وأن يكسوها اذا اكتسى، فإن من حقه عليها ألا تتبذل في ثيابها اذا خرجت من البيت، وألا تتخلع في مشيتها اذا سارت في الشارع، وألا تتبرج الا له..

* * *

والآن وقد انتهينا من الكلام عن طعام المرأة وكسائها، ننتقل الى بنود ثلاثة جاءت في الحديث الشريف. وسنوردها معاً لارتباطها بعضها ببعض.

يقول المعصوم صلوات اللّه وسلامه عليه:

ـ لا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر الا في البيت..

الواضح من هذه العبارات أو هذه الأوامر النبوية أن الخلاف اذا بلغ بالزوجين حد الردع، فلا يصح أن يصفع الرجل امرأته على وجهها، ولا يشتمها بألفاظ قبيحة، ولا يهرب من البيت ويتركها فيه وحدها..

حتى في حالة الخلاف الحاد فإن الاسلام يطلب الى الرجل أن يكون رقيقاً مع امرأته..

لماذا؟؟

لأن الرجل هو الجانب الأعلى في البيت.. وهو الرئيس الذي يتولى مسؤولية الأسرة..

والرئيس اذا لم يكن رفيقاً بمرؤوسيه، وعادلاً معهم، اختل ميزان الرياسة في يده..

فالنبي ﷺ يطلب الى الزوج ألا يضرب وجه امرأته.. لأن الوجه هو مجمع المحاسن، ومرآة الجمال، ومفتاح الحياة الزوجية..

فالرجل حين يذهب الى امرأة يريد أن يتزوجها فانما ينظر الى وجهها. فاذا أعجبه حسن الوجه، فتح له هذا الحسن باب الحب وباب الزواج..

وما دام الوجه له هذه الميزة الانسانية العالية، فإن من حق صاحبته ألا تهان فيه، ومن واجب الرجل أن يجل هذه الثروة الجمالية عن الاهانة والتشويه..

والوجه ـ كما نعلم ـ خصه اللّٰه بكثير من المفاتن.. حتى أن الشعراء تفننوا في وصف العيون فقالوا أنها مخلوقة من السحر، وفي وصف الرموش فقالوا أنها كالسهام المسددة، تقتل ولا تحيي من قتلته، وقالوا عن الخدين أنهما وردتان لا تذبلان أبداً.. وقالوا عن الثغر أن ابتسامته تذهب بلب اللبيب.

ولا شك أن الحفاظ على الوجه حفاظ على الصورة الجميلة الرائعة التي تطالع الرجل برونقها وبهائها حين ينام، وبفتنتها وسحرها حين يصحو، وباشراقها وملاحتها حين يعود من عمله..

وأي تشويه للوجه، أو احداث ندوب فيه، انما هو بداية

تشويه للحياة الزوجية نفسها . .

ومن هنا نفهم الحكمة في النهي عن ضرب وجه الزوجة . .

ثم أن الرسول ﷺ ينهي بعد ذلك عن التقبيح . . وهو استخدام الألفاظ القبيحة مع المرأة . .

ولعل سائلاً يسأل :

ـ لماذ جاء النهي عن التقبيح بعد النهي عن ضرب الوجه؟

المعروف أن ضرب الوجه يشوه أجمل وأكرم ما في المرأة . .

وشتم المرأة بألفاظ قبيحة يشوه سمعتها وسيرتها وأخلاقها .

فالأول تشويه حسي ، والثاني تشويه معنوي . .

وكلاهما مكروه وممقوت ومنهى عنه في الاسلام . .

كيف يسوغ لرجل أن يشهر بامرأته في لحظة غضب، وينسى أنها منسوبة اليه ، وكرامتها من كرامته؟!

اذا كانت العيوب والمثالب التي اتهمها بها موجودة فيها، فإن الشهامة تفرض عليه أن يسترها ويدافع عنها، ولا يذكرها بكلمة سوء . .

واذا كانت خالية من هذه العيوب والمثالب، فإنه يكون قد اتهمها ظلماً، وجرى لسانه بدناءة ما كان أغناه عنها، لأنه أساء الى أقرب الناس اليه، وأشدهم التصاقاً به .

ومسألة أخرى، وهي أن الألفاظ القبيحة لا ينطق بها رجل شريف يغار على امرأته من أن توجه اليها مثل هذه المقابح . .

فاهانة المرأة دليل على لؤم الطباع ، وخبث الطوية ، وخسة النفس .

وفي المقابل اكرام المرأة دليل على سمو الخلق، ونبل الطباع، ونقاء السريرة.

يقول ﷺ:

ـ ماأكرم النساء الا كريم، ولا أهانهن الا لئيم..

ويصف نفسه بالخيرية في معاملة أهله لنقتدي به ونفعل مثله..

يقول في حديثه الشريف:

ـ خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي..

ومن كان خيراً مع أهله فانه يكون خيراً مع الناس.. يثنى على محسنهم، ويغضى عن مسيئهم، ولا يتتبع عوراتهم.

أما الشرير مع أهله، فإنه يكون ناقماً على المجتمع، يتسقط عيوب الناس، لأنه لم يتورع عن تسقط عيوب أهله، ومن هان عليه أهله، كان الناس أشد هواناً عليه..

فالزوج الذي يعيش في سلام مع أهله، يعيش في سلام مع نفسه ومع المجتمع، لأن داخله خال من الصراع وعراك الغرائز..

أما الزوج الذي يحول البيت الى ساحة عراك وصراع وتنابذ، ولا يلقى أهله الا بوجه متجهم عبوس، فماذا تنتظر منه في تعامله مع المجتمع؟

انه ينابذ أحنى الناس عليه!! فمن أين يجد الحب والرحمة والسماحة التي يتعامل بها مع الناس؟

لو أننا فتشنا عن بواعث الجريمة وأسبابها، لألفيناها في

البيوت التي تداعت فيها أعمدة الحب، وتقطعت أواصر المودة، وجفت ينابيع الرحمة، وقبح أهلها ما كان حسناً، وشوهوا ما كان جميلاً . .

ولعلنا نفهم بعد هذا المغزى العميق من قوله ﷺ : ولا تقبح . .

أي لا تزر بنعمة اللّه . . ولا تستهجن خيراً أسداه لك . . وتذكر دائماً قوله ﷺ :

ـ استوصوا بالنساء خيراً . فإن المرأة خلقت من ضلع . وان أعوج شيء في الضلع أعلاه . فإن ذهبت تقيمة كسرته . وان تركته لم يزل أعوج . فاستوصوا بالنساء خيراً .

هذا هو واقع المرأة . . ويجب أن نعاملها على أساسه . .

خلقت من ضلع أعوج!!

ولكن ليس معنى هذا أن كل النساء فيهن عوج . . أو تصرفاتهن غير سليمة . . أو آراؤهن غير سديدة . .

كلا . . فهناك من النساء من يفقن الرجال رجاحة عقل وسداد رأي . .

ولكن الالتواء طبع في المرأة . . فقد يكون التواؤها دلالاً . لأن لها مطالب كثيرة عند الرجل . . وتسلك سبلاً ملتوية غير واضحة لتحصل على ما تريد . .

وقد يكون التواؤها اغاظة للرجل، لأنها ترد على فعل كريه له بفعل كريه . .

وقد يكون التواؤها لاثارة حب الرجل وتنبيه غريزته . .

المهم أن النساء وقد خلقن من ضلع أعوج يجب أن نعاملهن برفق، حتى ولو كن عصبيات في بعض الأحيان..

أن نقابل غضبهن بالحلم، وثورتهن بالحكمة، وانفعالهن بالبشاشة.. فالكلمة الحلوة تنزل على قلب المرأة برداً وسلاماً، والابتسامة الصافية تخمد فيها جذوة الغضب والانفعال..

الضلع الأعوج يصير ليناً سلساً طيعاً اذا حملته بيد الرحمة والمودة.. فالمرأة مهما تكن شرسة فانها تنهار وتخرج من عصبيتها من أول ابتسامة يلقاها بها الرجل..

هذا المخلوق الضعيف يجب أن نجعل قوتنا حماية له، وليست حرباً عليه..

ألا نهجر البيت عقاباً للمرأة على ما يدر منها سهواً أو عمداً. فهي أولى من الخادم بالرحمة، وحاشا أن نقارنها بالخادم، لأنها نبض قلوبنا، وحركة وجداننا، وخير متاع لنا في الحياة..

وقد كان النبي ﷺ يغفر للخادم في اليوم سبعين مرة.. أفلا نغفر لزوجاتنا، وهن أجدر بالصفح والمغفرة!!

إن كل شيء مفروض علينا في الحياة منذ المولد حتى الزواج..

لم نختر آباءنا وأمهاتنا.. ولكننا اخترنا زوجاتنا بمحض ارادتنا.. اخترناهن على أساس من الحب وتوافق الطباع..

بعضنا يتزوج عن حب جارف.. وبعضنا يتذوق طعم الحب بعد الزواج..

وسنتكلم عن الحب قبل الزواج وبعده في الفصل القادم.

الحب قبل الزواج وبعد الزواج

هناك سؤال مطروح دائماً.. وهو:

أيهما يدوم ويبقى: الحب الذي ينشأ قبل الزواج.. أم الحب الذي يتفجر في القلبين بعد الزواج..

لأن هناك أناساً يقولون: يجب ألا يتم الزواج الا بين اثنين متحابين.. شربا كأس الحب حتى الثمالة قبل عقد القران. ونسجت العواطف رباطاً قوياً بين قلبيهما، وجعلت كلا منهما مشوقاً الى الآخر، حتى ولو كانا جالسين معاً..

وثمة من يخالفون هذا الرأي، ويرون أن الحب قبل الزواج قد يكون متوهجاً ومشعاً، وعالياً في درجة حرارته، ولكن الألفة واللقاء الجنسي بعد الزواج يطفئان جذوته، ويخمدان سعاره، فيصبح الحبيبان شخصين عاديين. أما الحب الذي يحسه الزوجان بعد الزواج فهو الحب الثابت الدائم الذي لا يزول ولا يحول..

فأي الفريقين على صواب.. الذي يقول بالحب قبل الزواج.. أم الذي يفضل الحب بعد الزواج؟

قبل أن نبدي وجهة نظرنا في هذا الموضوع يجدر بنا أن نتعرف على معنى الحب وكنهه وحقيقته وعلاماته وآثاره.. والفرق بين الحب والاستلطاف، والحب والاعجاب، والحب لذاته، والحب لمصلحة، والحب السامي، وحب النزوة الطائشة.

فالحب أنواع. ولكل نوع مذاقه وغاياته وأهدافه. .

هناك حب يتأصل في أعماق الشعور، وحب يطفو على سطح الشعور.

وحب كالزهرة لا يكاد يزدهر حتى يموت. . وحب كالشجرة الباسقة يبقى ببقاء العمر. .

وحب يدوب من أول قبلة، وحب تزيده القبلات حرارة وايقاداً. .

وحب يقوم على الخلق الكريم، وآخر ينزو الى الشهوة الآثمة. .

ولذلك فإن المحبين فئات مختلفة. . لكل منهم ميوله واتجاهاته وأهواؤه. .

ولكن كيف نميز بين الحب والاستلطاف، وبين الحب والاعجاب. . لأن هناك خيطاً دقيقاً يفصل بينهما. . فما يكون استلطافاً أو اعجاباً لا يدخل في صفات الحب وان انطبقت عليه أوصافه الظاهرة. .

فالاستلطاف ما هو الا شعور بالارتياح لمزايا خاصة يحسها الرجل في المرأة، أو تحسها المرأة في الرجل. وقد يمهد الاستلطاف الطريق الى الزواج ويؤدي اليه. . وكثيراً ما رأينا زيجات يكون سببها الاستلطاف، دون أن يكون فيها نصيب للحب. . وتمضي الحياة بالزوجين هادئة ناعمة، كما بدأت هادئة ناعمة.

أما الاعجاب فهو أعلى درجة من الاستلطاف، وأكثر قوة

وعمقاً وتفاعلاً، وهو بداية حب، ولكنه ليس بحب.

فقد يعجب رجل بأناقة امرأة وعنايتها بمظهرها الخارجي وحسن اختيارها لثيابها، وتصفيف شعرها، وحرصها على أن تكون أنيقة جذابة. . ولهذا يتزوجها.

كما يعجب رجل بثقافة امرأة وعلمها وعقلها وحصافتها، ولا يهمه مظهرها الخارجي كثيراً. . ومن أجل هذا يطلب يدها ويتزوجها. .

وهناك من يعجب بسلوك امرأة في العمل وفي الشارع وفي السوق، ويجد فيها أنثى حريصة على عدم اهدار شخصيتها بسلوك معيب، فيقبل على الزواج منها.

الاعجاب مذاهب. ولكل من الرجل والمرأة مذهبه.

فثمة امرأة تعجب برجل لأنه يتميز على كثير من الرجال بمواهبه الفذة وقدراته الفريدة، وتود لو تزوجته.

وثمة امرأة تعجب بقوة الرجل البدنية بصرف النظر عن مواهبه وقدراته، وترى فيه رجلاً يوفر لها الحماية والأمن.

وثمة امرأة تعجب بأمانة رجل وصدقه، وتحترم فيه نقاء ضميره، ونظافة يده ولسانه، ولذلك لا تتردد في الزواج به. .

كل هذه الزيجات التي تتم على أساس الاستلطاف والاعجاب زيجات لا بأس بها. . لأنه ليس من الضروري أن يقوم الزواج على الحب. وان كان أفضل الزواج ما قام على الحب. .

* * *

نـأتي بعد هـذا الى الحب الذي يـأتي قبل الـزواج . . الحب الذي يمس القلب البكر، والنفس البكر، والشعور البكر.

فـالقلب البكـر، والنفس البكـر، والشعـور البكــر كـالأرض الخصبة التي لم تزرع . . ولكنها صالحة للزرع . .

الشاب يحلم بفتاة تحبه، وتتمناه زوجاً لها . .

والفتاة تحلم برجلها المنتظر . .

فترة الشباب هي فترة الأحلام الوردية . . والأماني الجميلة . . والتطلع المشبوب . .

وهي فتـرة النضـارة والـطهـارة . . نضـارة العمـر، وطهـارة الأخلاق . .

فترة الحب الجارف وعبادة الجمال . .

الحب الذي يبلغ حد الأسطورة في الوهم والخيال والتصور . .

والجمال الذي يعمي رائيه، فلا يرى فيه نقصاً أو شائبة . .

ويصمه فلا يسمع فيه عذلاً ولا ملاماً . .

ومن هنـا نفهم الحـديث الشـريف « حبـك للشيء يعمي ويصم ».

قد يبدأ الحب بالاستلطاف والاعجاب، ويتحـول شيئاً فشيئـاً الى أشواق ومواجيد وتباريح . .

ولا يملك أحـد أن يقف في طـريقـه حتى الأهـل والأبـاء والأصدقاء . .

فللحب سلطان على القلوب.. كل أوامره مشفوعة بالتنفيذ..

بل انه يبلغ أحياناً امتزاج المشاعر والأحاسيس والخواطر.. فاذا أصيب أحد المتحابين بمكروه أحس الثاني بآلام حبيبه وشجنه وشجاه..

وقوة الحب تجعل المحب لا يشعر بالمشقة اذا بذل جهداً في سبيل حبيبه، بل انه يستعذب المشقة، ويستسهل الصعب، ويجد في الأمر الكريه مذاقاً حلواً، وطعماً شهياً..

ولو واكبنا قوافل المحبين عبر العصور لرأينا أن كل ما كتبوه تعبيراً عن عواطفهم، أو كتب عنهم، وصفاً لأحوالهم، شيء يجاوز آفاق الخيال.. بينما هو حقيقة وواقع..

فالحب الذي ينشأ قبل الزواج حب ظاميء لاهث ينتظر الري بلهفة وحنين..

حب تنطق به العينان نظرات وامقة شيقة..

وينطق به اللسان كلمات عذبة صادقة..

وتنطق به الجوارح حركات ملهوفة دافقة..

حب سياجه العفة والحرمان، وحديثه قلبان يتناجيان.. ونفسان تتناغيان..

حب يؤججه شوق لا يخبو لهيبه.. ويتلظى في قلب لا يهدأ وجيبه..

حب همساته الهام وتسبيح.. وصمته وجد والتياع وتبريح..

هذا الحب المجنح في آفاق السمو والنبل والمثالية. . ماذا يحدث له بعد الزفاف ولقاء الحبيبين في مسكن واحد؟

هل يهبط من عليائه، وينزل الى أرض الواقع، ويعيش الحياة الزوجية بكل أفراحها وأتراحها؟ بكل مسراتها ومساءاتها؟ بكل ابتساماتها ودموعها؟ أم يظل مرفرفاً في سماواته لا يطوى جناحيه، ولا يتدنى الى عالمنا غير المثالي؟

ان سلوك الزوجين هو الذي يحدد مصير الحب. .

اذا استطاعت الزوجة أن تنسج من حبها.استبرقا يمشي عليه الرجل، ووسادة ناعمة ينام عليها. . وأن تحول البيت الى عش غرام. . لا ساحة معارك. . اذا استطاعت أن تنشر الحب في كل ركن من أركان البيت، كما تنشر الزهرة عبيرها الأخاذ. . فانها تترجم عواطفها الى سلوك يمد في عمر الحب، ويزوده بتيار الحياة.

أما أن تعتمد على الروابط العاطفية التي تربط بين قلبها وقلب زوجها، وتتراخى في نظافة البيت، أو تتقاعس عن طهي الطعام، أو تتكاسل عن تلبية مطالب زوجها. . فإنها تجهض الحب، وتقتل أغلى كائن في حياتها. . ثم تندم، حيث لا يجدي الندم.

وبقاء الحب وازدهاره ليس اختصاص الزوجة وحدها، ولكنه اختصاص مشترك بين الزوجين. . لكل منهما فيه حظ مقسوم. .

فعلى الزوج، لكي يظل الحب محتفظاً بتوهجه وحرارته، أن يكون تعامله مع الزوجة بعد الزواج امتداداً لمعاملته لها قبل الزواج. .

أن تستمر لهفته على لقائها مشبوبة لا تنطفيء.. يذهب الى البيت، وكأنه ذاهب الى الجنة الموعودة، تسبقه أشواقه، وتدفعه مواجيده، وتلهبه تباريح الغرام..

أن يتفنن في تقديم الهدايا اليها.. كما اعتاد أن يفعل قبل الزفاف..

أن يبدي استحسانه لكل ما يصدر عنها من أقوال وأفعال.

أن يثنى على ما تقدم له من طعام أو شراب.. واذ بدا له أن يزجي ملحوظة، فلتكن على سبيل المداعبة والمزاح..

أن يحاول، مهما كان مرهقاً من عمله، ألا يدخل البيت بوجه متجهم.. بل يضع في اعتباره دائماً أن يكون لقاؤه بزوجته لقاء عاشق بمعشوق..

فالبيت أولاً وأخيراً جنة، غرسها الحب.. والجنة من صفاتها أن تكون خالية من الهموم والمشكلات..

وأن يتذكر دائماً أن الزواج عهد الهي وثقته يد الرحمن.. وأن الزوجة أمانة اللّه في عنقه، ومن حقها عليه أن تنال كل رعاية وتكريم..

فهي قد بادلته الحب، وقاسمته الحياة، وربطت اسمها باسمه، وآثرته على جميع الناس.

عليه أن يتذكر أن الزوجة بالنسبة له كالعبير بالنسبة للزهرة.. وأن الحب هو ينبوع الحياة لهما معاً.. فاذا جف الحب جفت الحياة، وماتت الزهرة والعبير..

وعليه أن يتذكر أن الزواج مشاركة وجدانية قبل أن يكون لقاء

بدنياً.. وأن غذاء النفوس بالحب أغلى وأثمن من غذاء الأجساد بأطايب الطعام والشراب..

فاذا أغضى أو تغاضى عن الصورة الباهرة الساحرةالتي أحبها.. واذاتصامم عن الصوت الرقيق اللذي طالما شغف به. واذا تجاهل القلب االذي لم يشرك في حبه أحداً.. فانه يكون كالفجر الكاذب، يخدع البصر، ولكن سرعان ما ينقشع الخداع..

اذن.. فالحب قبل الزواج، مهما بلغ ذروة الوهج أو الحرارة والأجيج، لا يستمر ويدوم بعد الزواج الا اذا غذاه الزوجان بما يضمن له البقاء والاستمرار.

والوفاء للحب عقيدة مقدسة عند المحبين.. فمن كان وفياً لحبه، فانه يكون وفياً لقلبه، ونفسه، وشعوره.. وفياً لماضية، وحاضره، ومستقبله.. وفياً لخلقه وسلوكه.. وفياً لكيانه كله.. لأن الحب يكمن في الكيان، ولا يبرحه، حتى وان تخاصم الحبيبان..

حياة الحب مرهونة بمدى قدرة كل من الزوجين على المنح والعطاء..

اذا أحست الزوجة فتوراً من زوجها، ألهبت مشاعره بما توحيه لها الأنوثة الواعية الحصيفة.. وما أكثر ما عند الأنوثة من وحي والهام..

ان كل رجل لديه نقطة ضعف.. والمرأة تفهم هذه النقطة جيداً بحكم المعاشرة المستمرة.. وباستطاعتها أن تتسلل من

خلالها الى ايقاظ حبه اذا أخذته سنة من النوم. . وأن تجسد له ذكريات حبه، وعهد صبابته الأول. .

والرجل كذلك. . يعرف نقطة الضعف عند امرأته. . ومواطن الاثارة لحبها. . ولا يعييه بالكلمة الحلوة، والهدية المناسبة، والمعاملة الرقيقة، أن يخرج الزوجة من فتورها اذا أحس فيها خمولاً عاطفياً. .

وبهذا يستمر الحب بعد الزواج قوياً لا يضعف، متوهجاً لا يخبو، له مذاقه الطيب الذي عرفه الزوجان قبل الزواج. .

* * *

أما الحب بعد الزواج فما أروعه! وما أبدعه! وما أمتعه!

انه الحب الذي تجرد من الخيال والوهم والتصور والأحلام والأماني. .

الحب الذي اشترك في نسيجه العقل والعاطفة، وتعاونا على تنميته وازدهاره. .

الحب الذي أثمرته المعاشرة الطيبة، فآتى أكله حياة ناعمة مستقرة. .

الزوجة عرفت طريقها الى قلب الزوج فبادرت باحتلاله وسكنت فيه. .

والزوج كذلك نصب شباكه حول قلب المرأة، وأوقعها في فخاخ حبه. .

كل منهما يؤدي دور المحب، ولا يلعب الدور مجاملة أو تظاهراً.

كل منهما يستلذ التضحية، ويؤثر صاحبه على نفسه . .

فالرجل سيد البيت حقيقة، ولكن سيد القوم خادمهم . . فهو يعين امرأته على شؤون البيت، ويساعدها في كل ما يطيقه من أعمال . .

انه يقوم بدور السيد والخادم معاً . . ويجد السيادة في أداء الخدمة . .

والزوجة لا تتوانى عن مساعدة زوجها في شؤونه الخاصة، حتى وان كانت متعلقة بعمله ووظيفته . . فهي زوجته وسكرتيرته وخادمه . .

كلاهما يخدم الآخر، ويستمتع بالخدمة، لأنها تعبير عن الحب . .

وكلاهما لا يرهق صاحبه بما لا يطيقه من أعما ونفقات .

ولا يرتكب أحدهما فى حق الآخر ما يؤذي شعوره. أو يجرح كرامته . .

بل ان كلاً منهما يحاول أن يجرد الحياة من المنغصات والأكدار .

فالزوجة مثلاً لا تضيق بأهل الزوج ولا تعبس في وجوههم .

والزوج يرحب بأهل زوجته، معتبراً اياهم أهله وعشيرته . .

وهكذا باقي تصرفات الزوجين اللذين تحابا بعد الزواج، وتمازجا عقلاً وقلباً، وتماسا عاطفة وشعورا، وتوافقا أخلاقاً وطباعاً

فهما يعيشان على السراء والضراء دون أن تفتح الضراء باباً لافساد الحياة الزوجية . .

ولذلك يعيش الحب في قلبيهما، مهما تنكرت لهما الحياة، وبدلت غناهما فقراً، ونعيمهما بؤساً . .

فالحب الصادق لا يخرج من النافذة اذا دخل الفقر من الباب، كما يتوهم الواهمون . .

وانما يستمر في شظف العيش وشدته، بنفس القوة التي كان عليها في الرغد والرخاء.

فكم من تاجر أفلس، وموظف فقد منصبه، وفلاح تلف محصوله، وصاحب مال سطا عليه اللصوص . . وأصبح كل منهم في ضائقة مالية ينوء بها كاهله . . ومع ذلك كانت الزوجة الوفاء كله، والحب كله، والاخلاص كله . .

شدت من أزره، وهونت عليه، وآزرته في محنته، وكانت نعم الرفيق والصديق.

وكذلك الزوج . . قد تصاب زوجته بمرض يقعدها عن خدمته . . وقد يصاب أهلها بكارثة تصدع حياتهم . . فيعرب عن حبه لزوجته بالحنان الدافق، والرعاية المطلقة، وبذل ما في وسعه لاخراج أهلها من جب الافلاس . .

فالحب يفعل فعله في النفوس، فيولد فيها مكارم الأخلاق، وضروب الفضائل . .

انه سفينة النجاة عند كل أزمة . .

وسراج الحياة عند كل ظلام . .

والبلسم الشافي لجراح المحن والنوائب . .

وحب ينشأ بعد الزواج لا ينقضي أجله الا بانقضاء أجل الحبيبين . .

وليس معنى هذا الغض من الحب قبل الزواج، أو التهوين من شأنه . .

وانما الحياة الزوجية بوتقة ينصهر فيها الحب، فيذهب الزائف، ويبقى الأصيل . .

ولعل الزيجات التي كانت ثمرة الحب، ثم لم يكتب لها البقاء، هي أقوى دليل على أن الحب كان في طفولته ولم ينضج بعد . . فعجز عن مواجهة تيار الحياة . .

فكان أضعف الايمان عند بعض الأزواج أن يهربوا من بيوتهم .

لماذا يهرب بعض الأزواج من البيوت

بعض الأزواج يهربون من البيوت بعد فترة من الزواج ويعللون سبب هروبهم بأن البيوت لم تعد المكان الذين يجدون راحتهم فيه!!

هؤلاء أزواج أمام اللّه والناس، ولكنهم عزاب بفكرهم واحساسهم، لأن الزواج لم يترك بصماته في سلوكهم وتصرفاتهم..

فالزواج في حقيقته امتزاج جسدي وعاطفي وفكري، واذا انفصل عنصر من هذه العناصر منه، فقد قيمته ومعناه ومزاياه..

اذن.. ما الذي يجعل الزوج يهرب من البيت، ويمضي أطول فترة ممكنة خارجه؟

هل هروبه هذا علامة على أنه بدأ يكره زوجته، أو دليل على أنه لا يكرهها، وانما مل الحياة الزوجية؟ أو رمز الى عدم قدرته على مواجهة المشكلات اليومية مع زوجته؟

كل هذه الاعتبارات قائمة، وموضوعة في موازين التحليل والتعليل..

وهي تعبر عن وجود خلل في الحياة الزوجية، وصدع في جدارها، يهدد البناء كله بالتداعي والانهيار.

ومعالجة هذا الخلل، أو ترميم هذا الصدع، أمر يجب أن

يحرص عليه الزوجان. ولكن من أين تبدأ المعالجة، وكيف يتم الترميم؟

إذا كان الزوج قد مل الحياة الزوجية، لعيوب اكتشفها في زوجته، فعليه أن يصبر عليها، ولا يفر من البيت فرار القائد من المعركة، والا وصم بالخنوع وعدم الشجاعة..

وعليه أن يضع نصب عينيه دائماً قوله تعالى: **﴿وعاشروهن بالمعروف﴾**. وقول الرسول ﷺ: «لا يفرك (يبغض) مؤمن مؤمنة، ان كره منها خلقاً، رضي منها آخر»..

وعليه أن يتأسى بما كان يجري في بيت النبي ﷺ.. فقد كانت تحدث فيه بعض خلافات بين النبي وبين أمهات المؤمنين. وكان النبي يحسمها بحكمة، ويصل الى قلوب زوجاته بالكلمة الطيبة، واللفظ الحنون، والابتسامة الراضية، وقد وصفته السيدة عائشة رضي اللّه عنها بقولها:

«كان الرسول ﷺ اذا خلا بنسائه ألين الناس، وأكرم الناس، ضحاكاً بساماً..

وعلى الزوج أيضاً أن يتخذ من البيت قلعته الحصينة، وفندقه الأمين، وناديه المبهج، ومحرابه المقدس، وحديقته الغناء..

فهو في البيت رئيسه الأعلى، وصاحب الصولجان والسلطان..

كيف يهرب من كل هذه المباهج، ويصطحب أناساً يلوكون أخلاقه في غيبته، ويصفونه بما لا يليق من القول؟ فاللّه سبحانه وتعالى يقول: **﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾**.

وشيء آخر.. ان النساء كالرجال.. لهن محاسن وعيوب..
كما للرجال محاسن وعيوب..

فهناك امرأة عقلها أصغر من سنها.. لا تعرف متى تتكلم، ولا متى تسكت عن الكلام.. تصك سمع زوجها بما يكره سماعه، ويمقت الاصغاء اليه.. هذه الزوجة لا تختار الوقت المناسب للكلام.. كما لا تختار الكلام المناسب لتقوله.. وزوجها يود لو كان في أذنيه وقر.. حتى لا تلاحقه بثرثرتها حتى عندما يأوي الى النوم..

وهناك امرأة لا تتهيأ لاستقبال زوجها حين عودته من العمل بما يروق من الزينة والعطور.. بل ربما تستقبله بالثياب التي تنوح منها رائحة الطهي، وتظهر عليها بقع الطعام..

وثمة امرأة تظهر عليها نعمة الزواج، فتسرف في تناول المأكولات والمشروبات، حتى تضيق عنها ثيابها، وتذهب رشاقتها أدراج الرياح.. وتصبح سيدة مترهلة تمشي ببطء، لثقل وزنها.

وثمة امرأة تستضيف أهلها، حتى تتحول الاستضافة الى اقامة دائمة، ويعجز دخل الزوج عن الانفاق، فضلاً عن اقلاق راحته بهذا الاحتلال الأسري الذي ترحب به الزوجة..

وهناك امرأة تجلس أمام التليفزيون لمتابعة المسلسلات.. حتى اذا ما جاء زوجها من الخارج، وطلب احضار الطعام تمهله ريثما تنتهي الحلقة، حتى تعلم آخر ما حدث في المسلسل.

هذه هي بعض أنواع النساء.. وهذه أخلاقهن وصفاتهن.

* * *

ولكن المرأة مهما تكن، كما وصفها الرسول ﷺ، ناقصة عقل ودين، وخلقت من ضلع أعوج، وتكفر العشير، فإنها هي الأم التي لها جلالها واجلالها، والزوجة التي لها محبتها ومودتها، والبنت التي لها اعزازها وتكريمها، والأخت التي لها صيانتها ورعايتها، والزميلة التي لها احترامها وتوقيرها، والجارة التي لها حق الاغضاء عنها، والتعفف عن النظر اليها.

وكما أن النساء أنواع.. فالرجال أنواع كذلك..

رجل لا يعني بمظهره وهندامه.. ويملكه الغضب اذا وجد امرأته في مظهر غير مناسب.. وقد كان ابن عباس رضي اللّه عنهما يقول: اني لأتزين لامرأتي، كما تتزين لي.

ورجل ينفق على نفسه في تدخين السجاير ما يعادل ثلث نفقات الأسرة، وقد يتقاعس عن احضار فاكهة أو حلوى لأولاده، ولكنه لا يتقاعس عن التدخين يوماً واحداً..

ورجل لا يكتفي بتدخين السجاير، وانما يتعاطى الحشيش والأفيون، وقد يشم الهيروين والكوكايين، ويحرم أسرته من ضروريات الحياة.

ورجل يتزوج، ولا ينعم بالزواج الا قليلاً، ثم يسافر الى الخارج، ويترك امرأته للوحدة والوحشة والفراغ. ولا يتحقق لها الأنس الذي كانت تحلم به.

ورجل يمرح مع أصدقائه في الخارج ويفاكههم.. حتى اذا ما عاد الى البيت تجهم وعبس، وكأنه يزور المقابر!!

ورجل يعاني من مشكلات في عمله أو تجارته.. وينفس عن

انفعالاته الحبيسة في بيته، اذ يحيل البيت الى معترك بلا سبب ولا مسوغ . . ولا ذنب لزوجته وأولاده فيما يعاني منه!

ورجل يريد أن تظل امرأته على رشاقتها التي كانت عليها قبل الزواج . . ضارباً بآثار الحمل والرضاع عرض الحائط . . ناسياً أن امرأته زوجة، وليست ممثلة أو راقصة .

هذا النوع من الرجال لنا معه كلمة . .

فالزوجة تختلف عن الممثلة أو الراقصة اختلافاً بيناً، ولا وجه للمقارنة بينهما . .

الزوجة أم . . أي تزوجت لتنشيء أسرة، وتضيف الى شجرة الانسانية . وتمد البشرية بذرية صالحة .

والزوجة خاصة برجل واحد . . ومحرم عليها أن تجتذب أنظار الرجل بأناقتها أو عطرها أو زينتها .

والزوجة ربة بيت . . أي تركز اهتمامها في بيتها وزوجها وأولادها . . وليست متفرغة للتبرج والزينة، لأنها لا تتكسب بجسدها . .

والزوجة لا تنفق معظم دخل زوجها في عمليات تجميل وادخال اصلاحات على جسدها اذا تغضن أو ترهل، أو ترك عليه الحمل بصماته . .

والزوجة سيدة وقور محتشمة . . لا تأتي بحركات تثير الغرائز، ولا يهمها أن يتحدث الناس عن جمالها ومحاسنها ومفاتنها . .

أما الراقصة فآخر شيء تفكر فيه هو بيتها أو زوجها . . وقد

تبـدل أزواجها كما تبدل أحـذيتهـا. وتنفق على زينتها مـا يكفي لتربية أطفال عمارة بـأكملها.. وتـظل تغرق نفسهـا في المساحيق حتى تختفي ملامحها الطبيعية، وقسماتها الفطرية..

فـأي رجل يقبـل أن تكـون امـرأتـه مثيـرة للغـرائـز، مهيجـة لشهوات الرجال؟

ان الـديوث فقط هـو الذي يقبـل الخبث لأهله.. والـديـوث أحط أنواع الرجال..

أما الزوج الذي يجل زوجته فانـه يغار عليهـا.. لأنها عـرضه وشرفه وكرامته وعزته..

وقد كان سعـد بن أبي وقاص رضي اللّه عنـه شديـد الغيرة، ويقـول: لو دخـل رجل بيتي على امـرأتي لقتلتـه.. ولما تعجب الصحابة، قال لهـم رسول اللّه ﷺ:

- أتعجبـون من غيرة سعـد! فواللّه أنـا أغير منـه. واللّه أغيـر مني.

* * *

بعد هذا نتساءل:

- اذا كـان في الرجـال ما في النسـاء من العيوب. بـل ربمـا تكـون كفة الـرجال أرجـح في هذا المجـال.. فلماذ اذن يهـرب الرجل من البيت؟

ان هروبه سماه القرآن الكريم بالنشـوز والأعراض، وطب لـه العـلاج. فقال تعـالى: **﴿وان امـرأة خـافت من بعلهـا نشـوزاً أو اعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما، والصلح خير﴾.**

اذا فيجب المسارعة بالصلح عند أول بادرة من بوادر الخلاف قبل أن تصل الأمور الى حد الهروب من البيت . .

فالهروب من البيت لا يحل مشكلة ولا يفض نزاعاً، وانما هو يمثل ضعفاً في شخصية الرجل، وتصدعاً في بنائه الديني والانساني . . فالرجولة تفرض عليه أن يظل في مَكان القيادة من سفينة الأسرة . . يوجه ويرشد ويقود ويوطن نفسه على احتمال التضحيات . . فالزواج نفسه تضحية، لا بالمال وحده، ولكن بالعمر كله . . تضحية من الرجل والمرأة على السواء . . وهي تضحية فطرية لا غنى عنها، ولا سبيل الى تجاهلها أو تجافيها . . فكل من الزوجين اختار الطريق الصحيح . . ولكن عليه أن يتأهب لملاقاة متاعب الطريق، في رضى وسكينة، دون أن يتمرد على حظه، أو يمتعض مما يصيبه من أحداث .

واذا كنا قد تكلمنا عن بعض عيوب النساء والرجال، وذكرنا أن الحياة الزوجية كلها تضحيات، فخليق بنا أن نتحدث عن الآفات التي تدخل الحياة الزوجية فتفسدها، وأحياناً تصيبها بالعطب واهلاك . .

الآفات التي تصيب الحياة الزوجية

الزواج كالشجرة الوارفة الظلال. لا يكفي أن نمدها بالماء لكي تظل مزدهرة فينانة، ولكن علينا أن نحميها من الآفات الضارة.. ونأخذ بكل وسائل الوقاية حتى تزيد الشجرة نمواً وازدهاراً، ولا تتعرض لعوامل الهلاك، كما يحدث لأشجار الخريف..

والآفات التي تصيب الحياة الزوجية بعضها كامن في طباع الزوجين، وبعضها يطرأ على حياتهما، ولكل منهما علاجه ودواؤه..

فمن أسس الزواج أن يكون هناك تكافؤ بين الزوجين: تكافؤ في المركز الاجتماعي. تكافؤ في الثقافة. تكافؤ في المال. تكافؤ في السن.

فلو توافرت الكفاءة ـ وقل أن تتوافر ـ تحاشى الزوجان الآفة التي تصيب حياتهما من ناحية الفارق بينهما في المنصب والثقافة والمال والسن.. ولكن الذي يحدث أن أحد الزوجين يستطيع بذكائه ودهائه أن يعوض فارق الكفاءة بنوع من المعاشرة، فتمضي الحياة الزوجية في طريقها دون عثرات..

بيد أن الآفة الكبرى أن يظل الفارق بين الزوجين كالأفعى لينشر سمومه في الحياة. كأن يكون أستاذ جامعة مثلاً وتزوج خادمته حين أعجبه حسنها.. هو في قمة العلم، وهي في

حضض الأمية. . هو صاحب فكر وعلم ورأي. . وهي لا تجيد الا الطهي وتنظيف البيت. . ولا يمكن أن يلتقيا أبداً في مجال الفهم والحوار. . ثم أن الحسن الذي بهره ستعبث به يد الأيام، ولا يبقى الا الزوجة الأمية الجاهلة التي تبعد عن ثقافة زوجها بعد ما بين السماء والأرض. .

هنا تتدخل هذه الآفة لتصيب الحياة الزوجية بالعطب. . واذا حاول الزوج أن يتزوج أخرى مناسبة له في الثقافة والعلم والفكر والمركز، يجد أمامه عقبات كئاداً، ويكون مثله كمثل من يطفيء النار بالغاز. .

وعندئذ نفهم مغزى الحديث الشريف: « لا يزوج النساء الا الأولياء، ولا يزوجن الا من الأكفاء ». .

ثم أن عدم التكافؤ في الزواج يصيب الرجل بالاحباط، ويفقده سلطان القوامة في البيت. اذا كان فقيراً وزوجته ثرية، أو اذا تزوج امرأة ذات حسب، وهو من عامة الناس، ليتبوأ باسمها مكانة في المجتمع. .

كيف يتسنى له أن يمسك بصولجان القوامة، وهو يعيش في كنف زوجته، ويستمد عزته في المجتمع من انتمائه اليها؟

كيف يخالف رأيها، وهي صاحبة الطول والفضل عليه؟ واذا حاول أن يثأر لرجولته، هددته بفقدان مكانته، والقائه في زاوية الفقر بعيداً عن الرفاهية التي يرفل في حللها. . كما أن مثل هذه الزوجة تقر في وجدان أولادها أن أباهم ينعم في خيرها، فينشأون فاقدي الاحترام لأبيهم، مقدرين أمهم حق قدرها، باعتبارها صاحبة المال والجاه والسلطان في البيت. .

وأي آفة أخطر على الحياة الزوجية، من أن يصبح الزوج في بيته لا قيمة له، أو تصبح الزوجة، ولا وجود لها في قلب وعقل زوجها!!

أي زواج هذا الذي يفقد الاحترام المتبادل بين الزوجين؟

والأمثلة على هذا كثيرة.. وأبرز مثال وعاه وحفظه التاريخ ما حدث بين زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة.. فقد زوجهما الرسول ﷺ، ولكن زينب كانت تحس أن زيداً ليس كفؤاً لها، باعتبارها قرشية ذات حسب رفيع، وزوجها مولى من موالي الرسول ﷺ.. وقد انتهى هذا الزواج، كما تنتهي زيجات كثيرة بسبب عدم الكفاءة بين الزوجين.

ولعل هذا ما حدا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أن يقول:

« لأمنعن تزوج ذوات الأحساب الا من الأكفاء ».

ومن ضروب عدم التكافؤ في الزواج أن يتزوج شيخ كبير شابة في ريعان العمر.. قد يكون ثرياً، أو ذا منصب مرموق، ولكنه فقد كثيراً من مقوماته كزوج.. فلا تلبث الزوجة، وهي في فورة الشباب، أن تحس بأن أهلها وأدوها بهذا الزواج، وباعوها بثمن بخس، وتنتهي الحياة الزوجية بأخطر آفة أصابتها في الصميم.

وقد حدث في عهد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أن شابة زوجها أهلها من رجل مسن، فضاقت ذرعاً به، ولم تطق الحياة معه، فقتلته، فلما رفع أمرها الى أمير المؤمنين قال: أيها الناس.

اتقوا اللّٰه. ولينكح الرجل شبهه من النساء، والمرأة شبهها من الرجال. .

فانعدام الكفاءة في السن، أو في الثقافة، أو في المركز الاجتماعي، من أخطر الآفات التي تصيب الحياة الزوجية، وتؤدي بها الى العطب. . واذا كانت هناك زيجات انعدمت فيها الكفاءة، ولكنها استمرت وبقيت وأثمرت، فانها تعتبر شذوذاً في القاعدة. .

* * *

ومن الآفات التي تصيب الحياة الزوجية كذلك، سفر الزوج الى الخارج للعمل، وغيابه سنوات طوالاً عن زوجته. .

انه يسافر لكي يحصل على المال الذي يتوهم أنه سيسعد زوجته، ولا يدري أن أنس الزوجة به أغلى كثيراً من المال، الى جانب أن ابتعاد الزوج عن زوجته يفتح قلبها لوساوس الشيطان، وكثيراً ما تقع جرائم خلقية بسبب غياب الزوج. .

إن العصمة للأنبياء فقط. . فإذا تخيل زوج أنه بأغداقه على زوجته مالاً وهدايا، يعصمها من الزلل، فهو واهم ومخدوع. . فالمرأة المتزوجة تراودها خواطر متلاحقة عن السعادة الزوجية، وبخاصة اذا رأت مظاهر السعادة من حولها في الأزواج الذين يعيشون بجوار زوجاتهم، راضين بما قسم اللّٰه لهم من رزق. . وقد تصبر المرأة على بعد زوجها فترة، ثم تحن الى لقائه، ولا سبيل الى ذلك، فتتأرجح نفسها بين العفة والانحراف. . فإذا قيض لها شيطان من شياطين الأنس، واستطاع بمهارته في الختل

والخداع، أن يستهويها ويستزلها، فإنها تهدم كل ما تغرب زوجها من أجله، وتلك آفة قاتلة، لو تتبعنا ضحاياها في الصحف، لعلمنا مدى ما قتلت من حياة زوجية كان يمكن أن تتبوأ مكانة عالية من السعادة.

وهذه الآفة لا يصح الاغضاء عنها. فنحن اذا لمنا المرأة على انحرافها وتدنيس الحياة الزوجية.. فيجب أن نلوم السبب الأساسي في ذلك، وهو الرجل.. لأنه هدم بيته بنفسه، ومهد للشيطان طريق الدخول الى حياته الزوجية فنفث فيها سمومه..

ولهذا فإن الاسلام أعطى الزوجة حق طلب الطلاق اذا حكم على زوجها بالسجن فترة طويلة، وخافت على نفسها الفتنة. أو اذا غاب زوجها فترة طويلة وانقطعت عنها أخباره..

وحكمة الاسلام في ذلك هي تحاشي وقوع المرأة في الخطيئة.. والحفاظ على عفتها واحصانها..

* * *

هناك حكاية حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان يتفقد أحوال الناس ذات ليلة، وبينما هو بجوار أحد البيوت، اذ سمع امرأة تنشد شعراً يفهم منه أنه لولا خوفها من الله، لانحرفت وارتكبت جريمة الزنا..

وأراد عمر أن يعرف أحوال هذه السيدة، فاستدعاها، وسألها، فأخبرته بأن زوجها ذهب الى الجهاد منذ سنتين، ولم يرجع.. فلم يتعجل في اصدار قرار بشأن الذين يسافرون في

مهام رسمية للدولة. . وانما أراد أن يكون القرار مبنياً على أساس سليم. .

سأل ابنته حفصة: كم تصبر المرأة على زوجها؟ فأخذها الحياء، ولم تحر جواباً. . فكرر عليها السؤال، وقال لها: لا حياء في الدين. . فقالت أم المؤمنين رضي اللّه عنها: تصبر المرأة على زوجها أربعة أشهر. .

اذن فلا يجوز أن يغيب الرجل عن زوجته أكثر من أربعة أشهر، والا تسللت الآفات الى حياته الزوجية. . أما أن يغيب سنوات متواصلة، ثم يطلب الى زوجته أن تكون في شفافية الملائكة، وأن تلغي غرائزها، وأن تضع قلبها في قفص حديدي وتغلق عليه، وأن تلبس منظاراً أسود، فلا ترى الرجال الا أشباحاً، وأن تعرض عن زينة الحياة الدنيا، وأن تعيش عزبة وهي متزوجة، وأن تهدر أنوثتها وتخرس صوتها المجلجل في أعماقها، وأن تترك محاسنها للأيام تنهش فيها. . فهذا طلب يتنافى مع الفطرة السليمة، ومع منطق العقل.

اذا كان حراماً على المرأة أن تنظر الى رجل غير زوجها، فانه حرام على الرجل أن يجعلها تعيش في وحدة موحشة دون أن تستمتع به، ويستمتع بها!!

حرام عليه أن يذل أنوثتها ويجرح كبرياءها وهي تتطلع الى رجل محرم عليها. .

انه صنع آفة الحياة الزوجية بنفسه، وشنق سعادته من حيث لا يدري.

* * *

وهنـاك آفة تصيب الحيـاة الزوجيـة، ولا تحدث الا من زوج أحمق، أو زوجة خرقاء.

هذه الآفة هي افشاء الأسرار الزوجية، وبخاصة ما يتعلق منها بالوقاع أو اللقاء الجنسي.

وقد وصف اللّه تبارك وتعالى الزوجة الصالحـة بأنهـا حافـظة للغيب.. أي تصون عرضهـا وأسرار زوجهـا، ولا تجعل حيـاتهما الخاصة حديث الناس. يقول عز من قائل:

﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ اللّه﴾..

ليس هـذا فحسب.. بل أن اللّه سبحـانه وتعـالى وصف كلاً من الـرجل والمـرأة بأنـه لبـاس لـلآخـر، أي يستـره، ويحفـظه، ويحميه، ويصونـه. وأي شيء يتطلب الحمـاية والصـون والحفظ أكثر من الأسرار الزوجية والحياة الخاصة؟.

هل هناك رجـل يقبل أن يـطلع انسان على عـورة زوجته، أو على جسدها؟

لا يمكن أن يـوجد هـذا الرجـل إلا إذا كـان ديـوثـاً، يـرضى الخبث لأهله، ولا يغار على شرفه..

فكيف يستبيح أحد الزوجين أن يتحدث عن أخص شؤونه مع صاحبه، ويقوم بدور المتجسس عليه وفضح أسراره..

إنه إن فعل ذلك فانما يرتكب حماقة ما بعدها من حماقـة.. وسيكون مثله مثل من يكشف عن عورته وسـوأته أمـام الناس بـلا خجل ولا حياء!!

ولذلك حـذر الرسـول ﷺ من الافضاء بمـا يدور بين الـرجل

وزوجته من أسرار، فقال في حديثه الشريف:

« ان من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة: الرجل يفضي الى امرأته، وتفضي اليه، ثم ينشر أحدهما سر صاحبه ».

لماذا؟ لأن هذا تصرف دنيء خسيس، وانتهاك لحرمة الحياة الزوجية..

وقد كانت هذه الآفة منتشرة في الجاهلية، وقضى عليها الاسلام، لأنها كانت سبباً في هدم البيوت، والتفريق ما بين الزوجين.. اذ كانت المرأة اذا اختلفت مع جارتها عيرتها بأنها تفعل كذا وكذا مع زوجها.. وكأنها كانت معهما في غرفة النوم.. وعندما يعلم الرجل بأن أسرارهما مضغة في الأفواه ينفصل عن صاحبته.

وكذلك كان الرجل.. اذا علمت امرأته أنه وصف لقاءهما الجنسي لأصحابه، تثور حميتها، وتثأر لكرامتها، ولا تلبث أن تنفصل عنه..

وقد كان الرسول ﷺ يقضي على عادات الجاهلية الخسيسة عادة عادة، ويحل محلها مبادىء الاسلام.. فبينما كان جالساً يوماً يعلم الرجال والنساء، اذ قال:

« ألا عسى أحدكم أن يخلو بأهله، يغلق باباً، ثم يرخى ستراً، ثم يقضي حاجته، ثم اذا خرج حدث أصحابه بذلك. الا عسى أن تغلق احداكن بابها، وترخى سترها، فإذا قضت حاجتها، حدثت صواحبها.

فقالت امأرة سفعاء الخدين:

ـ واللّه يا رسول اللّه. انهن ليفعلن. وانهم ليفعلون.

قال: فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة على قارعة الطريق، فقضى حاجته منها. ثم تركها وانصرف.

أي تشبيه أخطر من هذا التشبيه!! ان الرسول ﷺ بأدب النبوة، يعلمنا أن الرجل الذي يفشي أسرار اللقاء الجنسي، أو المرأة التي تبوح به، انما تبلغ جريمتهما من البشاعة مثل جريمة من يواقع امرأته في مكان عام..

هل هناك أبشع من هذا الفعل؟

هذه الآفة لا تصيب الا حياة الجهال والأغرار.. ومن على شاكلتهم من مسلوبي الكرامة والشرف الذين لا يهمهم أن تنهش أعراضهم، أو يلغ الناس في سيرتهم!!

* * *

ننتقل بعد هذا الى آفة من آفات الحياة الزوجية، وهي الغيرة المدمرة الهدامة الناسفة.. سواء كانت الغيرة صادرة من الرجل أو من المرأة..

بادىء ذي بدء نقول: أن الغيرة المعتدلة محمودة في الاسلام.. ودليل على الحب، وبرهان على الحفاظ على الحياة الزوجية.. لأن الرجل لا يغار على زوجته الا اذا كان يحبها، ويرفض أن يطمع فيها رجل آخر، ويحرص كل الحرص على بقاء الحياة الزوجية..

وكذلك المرأة لا تأخذها الغيرة على زوجها الا لشدة استئثارها به، وعدم التفريط فيه..

ولكن اذا تحولت الغيرة الدافئة الى غيرة ملتهبة متوقدة تحرق الثقة بين الزوجين.. وتقضي على الطمأنينة التي تسود حياتهما، فإنها تصبح آفة خطرة مثل خلية السرطان تأكل الحياة الزوجية أكلاً لما.. ولا تبقى ولا تذر..

«قد علمنا الرسول ﷺ أن نغار على زوجاتنا، وقال لأصحابه عن سعد بن أبي وقاص: أتعجبون من غيرة سعد. فواللّه أنا أغير منه. واللّه أغير مني».

اذن.. فالغيرة مطلوبة في الاسلام.. ولكن الاسراف فيها غير مطلوب.. كالاسراف في أي شيء..

بل إن الرسول ﷺ نبهنا الى ألا تتخون زوجاتنا، ونأخذهن بالريبة والظن.. حتى لانغرس أشواك الشك في الحياة الزوجية..

يقول في حديثه الشريف:

« إن من الغيرة غيرة يبغضها اللّه عز وجل.. وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة »..

فما دام سلوك المرأة قويماً، وما دامت كلماتها متحفظة، وما دامت نظراتها الى الرجال أمينة، فلا يصح للرجل أن يؤول كل كلمة قالتها، أو يرتاب في كل نظرة نظرتها، أو يحمل كل تصرف لها محمل الظن والشك..

ان من حقه أن يغار عليها، ولكن ليس من حقه أن يتمادى في الغيرة، ويجعل من كل أمر تافه مشكلة جسيمة، وتتماوج نفسه بخواطر السوء.. ويصبح صدره كالمرجل الذي يغلي، بدور مبرر أو سبب معقول..

ولكي يتحاشى الرجل هذه الغيرة المدمرة الهدامة الناسفة، عليه ألا يجعل امرأته المتحدثة الرسمية باسمه في البيت مع الضيوف، أو مع الرجال في أي اجتماع.. فقد يعجب رجل بحديثها، أو طريقة تفكيرها، أو ابتسامة وجهها وهي تتحدث، أو صوتها الحنون الرخيم، ويسترسل في الحديث معها، على اعتبار أنهما في اجتماع، وليسا وحدهما.. وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث، والحديث ذو شجون، اذا بالزوج تحترق أعصابه غيرة، ولولا الخشية لفتك بزوجته..

من المسؤول عما حدث؟

انها مسؤولية مشتركة.. ولكن الزوج يحمل العبء الأكبر من هذه المسؤولية.. وينهال على امرأته بعد ذلك بالتقريع واللوم والتأنيب، ومهما حاولت اقناعه بأن الحديث الذي جرى بينها وبين الرجل لم يكن الا نتيجة اللقاء العابر، فانه لا يقتنع، وتترسب في أعماقه الشكوك، وتتحول الغيرة الى معول مشحوذ يهدم الحياة الزوجية لبنة لبنة..

وقد فطن الامام علي رضي اللّٰه عنه الى هذه الحقيقة، وكان فطناً لبيباً حاذقاً ألمعياً، فقال لجلسائه يوماً: «ألا تستحون؟ ألا تغارون؟ يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال، تنظر اليهم، وينظرون اليها»..

إذن فإن الاختلاط هو أول أسباب الغيرة ودواعيها.. أن يجلس الرجال مع النساء، وتلتقي النظرات الخائنة وغير الخائنة.. وتلتقي الكلمات البريئة، وغير البريئة.. وتفتن السيدات في اظهار براعتهن. والرجال في ابداء اعجابهم

واستحسانهم. . الى آخر ما يحدث في مثل هذه اللقاءات. .

وقد سأل الامام علي كرم اللّه وجهه زوجته السيدة فاطمة رضي اللّه عنها:

ـ ما خير للمرأة؟

فقالت: ألا ترى الرجال، ولا يراها الرجال.

فضمها الى صدره وقال: ذرية بعضها من بعض.

ومن هنا نعلم أن من أخطر أسباب الغيرة أن يرى الزوج رجلاً مهتماً بزوجته هو، أو امرأة مهتماً زوجها بغيرها. . والسبب المباشر هو الاجتماعات المختلطة، سواء في البيوت أو في الأندية، أو في الحفلات العامة والخاصة. . وللوقاية من الغيرة كما قالت بنت الرسول ﷺ: ألا ترى المرأة الرجال، ولا يراها الرجال. .

فإذا حدث الاختلاط، وأنشبت الغيرة أظفارها في قلب الرجل أو قلب المرأة. . فعلى من يقع اللوم والتثريب. .؟

انهما يقعان ـ ولا شك ـ على الزوجين معاً.

وآفة الغيرة من أشد الآفات فتكاً بالحياة الزوجية. .

فكم قوضت بيوتاً، وأتعست أسراً، وشردت أطفالاً، وفتحت الطريق أمام الزوجين الى المحاكم. .

وغيرة المرأة على زوجها أعنف وأضرى من غيرة زوجها عليها. .

فإذا أحست أن زوجها مهتم بامرأة أخرى مهما تكن المرأة

التي دخلت حياتهما من النافذة، وليس من الباب، دونها جمالاً أو حسباً أو جاهـاً أو مالاً، فـإن الغيرة تضـطرم في قلبها، ولا تتـورع عن فعل شيء في سبيل الحصول على معلومات عن زوجها. .

والمثل يقول: المرأة إذا أحبت قتلت. واذ كرهت قتلت. .

فالمرأة الغيرى تقوم بدور رجل المباحث اذا كان يتعقب رجلاً هارباً من أحكام، أو مشتبهاً فيه، أو تحوم حوله الشكـوك في تدبيـر مؤامرة، أو عمل خيانة وما الى ذلك. .

فهي تجند دهاءها وخبثها ومكرها وكيدها، في التجسس على زوجها.

تضع خريطة كاملة لتصرفاتـه اليوميـة. . الأماكن التي يـذهب اليهـا. . الأصـدقـاء الـذين يجلس اليهم. . المـطاعم التي يتـردد عليها اذا كان يأكل في الخارج. . المكالمات التليفونية التي تطلبه اذا كان عنده تليفون بالمنزل. .

الحاصل أن الزوج أصبح متهماً في نظر زوجته، وهي تبحث عن دليل ادانة حتى تضعه في قفص الاتهام، وتبدأ في محاكمته، فاما أن يثبت بـراءته. . واما أن تمضي الخلافـات الى غايتهـا. . بدافع الغيرة المجنونة الحمقاء. .

والاسـلام في علاجـه لأدواء النفـوس وضـع البلسم الشـافي لعلاج الغيرة فأوضح الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه الغيرة التي يحبها اللّه، والغيرة التي يكرهها، فقال في حديثه الشريف:

« من الغيرة ما يحب اللّه، ومنها ما يكـره اللّه. فأمـا ما يحب اللّه فالغيرة في الريبة، وأما ما يكره اللّه فالغيرة في غير الريبة ». .

ثم نهى النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم، أو يطلب عثراتهم..

أي أن الاسلام وضع حدوداً للغيرة يجب ألا يجاوزها الزوجان حتى لا تؤدي بهما الى الطلاق، وهو أبغض الحرام عند اللّٰه ويهتز له عرش الرحمن.

* * *

ومن الآفات التي تصيب الحياة الزوجية تدخل «الحموات» في شؤون الزوجين..

وهي آفة خطرة، ولا يقدر الزوجان عواقبها وأضرارها النفسية والمالية..

فإذا نقل الزوج الى بلد بعيد مثلاً، وكانت ترقيته مرتبطة بهذا النقل، وتدخلت حماته ورفضت أن تنتقل زوجته معه.. فماذا يحدث؟

يحدث تفكك في الأسرة، وتمزيق في روابطها، لأن الزوج اذا سافر وحده، فسوف يحس بجرح عميق في كرامته.. لأن زوجته خرجت على طاعته.. وآثرت الحياة بجوار أمها على الحياة معه.. وقد تتطور الأمور حتى تصل الى هاوية الطلاق..

وسجلات المحاكم تشهد بوقائع الطلاق التي حدثت لهذا السبب..

فالزوجة المسكينة ذهبت ضحية أمها المتسلطة، والزوج سقط هو الآخر بالضربة القاضية التي وجهتها اليه حماته..

وعلى هذا التنمط فإن تدخل « الحموات » سم زعاف يصيب الحياة الزوجية بالهلاك . .

يحدث كل هذا لأن مباديء الاسلام بعيدة عن الحياة الزوجية . .

فرسولنا ﷺ يقول في تنظيم علاقتنا بأبنائنا :

« لاعب ابنك سبعاً، وأدبه سبعاً، وصاحبه سبعاً، ثم أترك حبله على غاربه » .

أي اذا بلغ الابن أو الابنة سن الرابعة عشرة، فإن كلاً منهما يكون قد جاوز مرحلتي اللعب والتأديب . . ويدخل في مرحلة الصحبة لمدة سبع سنوات، ثم بعد ذلك عليه أن يواجه الحياة وحده . . اللهم الا فيما تقتضيه الروابط الأسرية من حقوق وواجبات .

ومرحلة الصحبة مرحلة نضج واستئناس وألفة . . تحس الأم أن ابنتها قد كبرت ولها رأيها الخاص، وشخصيتها المستقلة، وعواطفها الأنثوية، ومن حقها أن تفصح عن رغبتها اذا كانت تريد شيئاً . . وتناقش أمها في أدب وتوقير . .

وكذلك الأمر بالنسبة للأب . . يحس أن ابنه قد أصبح شاباً يتحمل التبعات، ويخفف عنه أعباء الحياة، ويبدي رأيه في كل ما تطرحه الأسرة من أمور . .

وبما أن الاسلام قد أمر الآباء والأمهات بأن يتركوا لأبنائهم الحرية بعد سن الحادية والعشرين . . فليس من حقهم أن يتدخلوا في شؤونهم، والا كانوا خارجين على سنة رسول اللّه ﷺ . .

ولو تأملنا أي آفة من آفات الحياة الزوجية نجد سببها بعدنا عن الاسلام وعدم تطبيقنا له في بيوتنا.. وعلى حياتنا الأسرية.

فمن حق البنت ألا تطيع أمها اذا تدخلت لافساد حياتها الزوجية، وليس في هذا عقوق.. فهناك حديث شريف يقول «لعن اللّٰه من استعق ولده».. أي طلب منه أمراً يغضب اللّٰه عز وجل، ورفض الابن تلبية طلب والده، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. عند هذا يتهم الأب ابنه بالعقوق، وهو غير عاق، لأنه وقف بجانب أمر اللّٰه، وتغاضى عن أمر والده الخارج على حدود اللّٰه..

ورباط الزوجية أقدس من أن توهنه الحماة بتدخلها الشائن المعيب.

* * *

ومن الآفات الخطرة في الحياة الزوجية تنافر طباع الزوجين..

فقد يكون الرجل شديد الشغف باللقاء الجنسي، في حين أن المرأة باردة الغريزة، لا تستجيب لزوجها الا بقدر ضئيل لا يشبع نهمه الجنسي، ولا يطفيء سعار غريزته..

وقد تتهرب الزوجة فتهجر فراشها لكي لا يتمكن زوجها من مواقعتها، ولا تدري أنها تبيت في لعنة الملائكة..

فالرسول صلوات اللّٰه وسلامه عليه يحذر المرأة منهجرفراش زوجها فيقول في حديثه الشريف:

«اذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى

تصبح ».. وقال في حديث آخر: « والذي نفسي بيده. ما من رجل يدعو امرأته الى فراشه فتأبى عليه، الا كان الذي في السماء ساخطاً عليه ».

وكذلك المرأة المسوفة.. يلعنها اللّه سبحانه وتعالى.. لأنها تنتحل الأعذار، حتى ينام زوجها دون أن تجيبَه الى طلبه اذا دعاها للفراش.

يقول الرسول ﷺ:

« لعن اللّه المسوفة.. التيْ يدعوها زوجها الى فراشه، فتقول: سوف.. حتى تغلبه عيناه »..

وإذا كانالاسلاملا يجيز للمرأة أن تهجر فراش زوجها، بل حذرها من ذلك، فإنه طلب الى الرجل ألا يهجر فراش زوجته، وألا تشغله عبادته أو تجارته أو عمله أو وظيفته عن اعطاء زوجته حقها المشروع في الاستمتاع به، وارواء أنوثتها، وتأكيد ذاتيتها كزوجة يرغب فيها زوجها..

والأدلة على ذلك كثيرة ومتعددة.. ومنها أن النبي ﷺ حين علم أن عثمان بن مظعون حلف أن يقوم الليل كله، ويصوم النهار دعاه وقال له: أراغب عن سنتي؟ فقال: لا واللّه يا رسول اللّه. ولكن سنتك أطلب. فقال النبي ﷺ: فاني أنام وأصلي. وأصوم وأفطر، وأنكح النساء. فاتق اللّه يا عثمان. فإن لأهلك عليك حقاً، وان لضيفك عليك حقاً، وان لنفسك عليك حقاً. فصم وأفطر وصل ونم.

ولم تكن هذه الوصية خاصة بعثمان بن مظعون، فقد كان

النبي ﷺ يوصي كل صحابي يعلم أنه هجر فراش الزوجية بأن يعود اليه، وأن يمارس حياته الطبيعية مع زوجته. .

فالحياة الزوجية تقوم على العلاقات الروحية والعلاقات البدنية معاً. . وأي انتقاص من احدى العلاقتين فانما هو انتقاص من السعادة الزوجية. .

فإذا أعرض الرجل عن زوجته بدعوى التعبد أو العلم أو ما شاكل ذلك، فإنه يكون قد أعرض عن مبادىء الاسلام، وطعن حياته الزوجية في الصميم. .

وقد حكى عن الزبير بن بكار، وكان من العلماء المكبين على القراءة والاطلاع، أن امرأته كانت متبرمة بعلمه وكتبه، وقد أعربت عن تبرمها حين قالت لها احدى جاراتها: هنيئاً لك اذ ليست لك ضرة. . لأن الزبير لم يتزوج عليها، فردت امرأة الزبير بكلمات تنضح مرارة:

واللّه لهذه الكتب أضر على من عدة ضرائر!!

ومن تنافر الطباع كذلك أن يكون أحد الزوجين هادئاً رزيناً يعالج الأمور بروية وأناة، والثاني سريع الغضب، حاد المزاج، يضخم أصغر المشكلات، ويجسم أتفه الأمور. .

عندئذ يكون الطرف الهادىء الرزين هو الضحية دائماً. . يوطن نفسه على تلقي الهجوم والوخز والجراح. . والا تحول البيت الى معترك لا يهدأ أواره، ولا ينجلي غباره، ولا تخفت ضجته. .

بيد أن الحياة الزوجية في بيت لا انسجام فيه. . حياة نكدة

كلها تعاسة وشقاء . .

حياة كحبة القمح ينخر فيها السوس، ويحولها الى فتات . .

ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات على الزوجين أن يتحرى كل منهما عن طبع الآخر أيام الخطبة . . قبل أن يتحرى عن دخله ومركزه الاجتماعي ومستقبله المنشود . .

أما أن يرتدي الخطيب زي قيس، وترتدي المخطوبة زي ليلى، ويمثلا دور العاشق والمعشوق، ثم يكتشفا بعد الزواج أنهما عاشا تمثيلية وهمية، وأن كلاً منهما لا يتواءم مع الآخر طبعاً وسلوكاً . . فهذه هي الآفة التي نحذر منها كل مقبل أو مقبلة على الزواج . .

فثمة زوجات ينافسن وكالات الأنباء في التقاط الأخبار من الجارات والخادمات والصديقات، والقائها ببراعة واثارة فور عودة الزوج من العمل . . بينما يكون الزوج ممن لا يعنيهم هذه الأخبار . .

زوجة طبعها الثرثرة والبحث عن المشكلات . . وزوج طبعه الصمت والبعد عن المشكلات .

ماذا يفعل الزوج اذا كان لسان زوجته خطيباً ومذياعاً وناقل أخبار؟

انها توفر عليه شيئاً واحداً، هو ألا يشتري شرائط فيديو، لأنها كفيلة بأن تنقل اليه ما تضيق عنه مئات الشرائط من المعلومات التافهة . .

ولو علمت مثل هذه الزوجة أن لسانها هذا ليس معول هدم

لهناءتها الزوجية فحسب. بل أداة حادة تفتح لها باباً من أبواب جهنم، لكفت عن الثرثرة ونقل الأخبار..

فالرسول ﷺ أخبر بأنه لا يكب الناس على وجوههم في جهنم الا حصائد ألسنتهم..

ولسنا في معرض الحديث عن الغيبة والنميمة والسب والشتم واللعن والقذف، وما ال ذلك من حصائد الألسنة بالنسبة للمرأة والرجل، ولكننا في معرض تنافر الطباع بين الزوجين وألوانه، وما يمكن أن يتمخض عنه من تصدع في بناء الأسرة.

ويحضرنا في هذا المقام حديث الرسول ﷺ:

« يا معشر النساء. تصدقن. وأكثرن من الاستغفار. فاني رأيتكن أكثر أهل النار. تكثرن اللعن. وتكفرن العشير»..

وقوله ﷺ كذلك:

« أطلعت في النار، فوجدت أكثر أهلها النساء ».

* * *

ومن الآفات التي تتسلل الى الحياة الزوجية فتصيبها بالركود والجمود، أن يكون أحد الزوجين عقيماً.. وعقمه لا يرجى برؤه ولا شفاؤه..

وسواء كان العقم فطرياً، أو ناتجاً عن مرض أو عملية جراحية، فانه يحجب شمس الهناءة عن سماء الزوجين..

ولكن موقف الزوجة أخطر بكثير من موقف الزوج..

فإذا كانت عاقراً، فانه يستطيع أن يتزوج، ولا حرج عليه، ولا أحد يلومه . .

فهو يريد أن يحقق أبوته في انجاب أطفال، ويسعى الى ذلك سعياً حثيثاً . .

وأما إذا كان الزوج عقيماً، فماذا تفعل الزوجة اذن؟

انها تهفو الى أن تكون أماً. ولكن حظها أوقعها في مشكلة شائكة . .

فالرجل الذي تزوجها ليس بقادر على الانجاب، لا في الحاضر ولا في المستقبل؟

والفقهاء القدامى لم يصدروا فتوى تحقق أمنيتها في الانفصال عن زوجها، والتزوج برجل آخر قد تنجب منه . .

بل ان كثيراً من الفقهاء قالوا: ان عقم الرجل ليس مبرراً لطلب الطلاق . .

ولكن المشرع الأعظم صلوات اللّه وسلامه عليه أوصى بأن نتزوج الولود حتى يكاثر بنا الأمم . .

فقد جاءه رجل وقال له: اني أحببت امرأة ذات حسب ومنصب، الا أنها لا تلد. أفأتزوجها؟ فنهاه . . ثم أتاه الثانية فقال مثل ذلك . . ثم أتاه الثالثة فقال له: تزوجوا الودود الولود. فاني مكاثر بكم الأمم.

اذن الأفضلية للمرأة الولود . .

فما ذنبها اذا تزوجت رجلاً كتب اللّه عليه العقم؟

لقد عرضت قضية على عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يجب أن تتخذها قاعدة شرعية لحسم هذا الموضوع . .

موضوع عقم الرجل . .

فقد جاءته امرأة وشكت اليه من أنها تزوجت، ثم اكتشفت أن زوجها خصى لا يصلح للانجاب . . فسأله أمير المؤمنين: أأعلمتها قبل أن تتزوجها؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين. فقا له عمر: خيرها . . فلما خيرها طلبت الانفصال . .

لماذا لا تتخذ من هذا الحكم الذي أصدره خليفة المسلمين قاعدة نبنى عليها أحكامنا حين تصادفنا مشكلة كهذه، لأن الاسلام الذي منح الرجل حق التمتع بالانجاب، لا يضن على المرأة بهذا الحق، فهو دين كله انسانيات، واتاحة الفرصة أمام المرأة لتحقيق أمومتها واحدة من هذه الانسانيات.

* * *

ومن الآفات التي تعكر صفو الحياة الزوجية أن ينصرف الزوج عن ممارسة الجنس مع زوجته . . فهي في هذه الحالة تراجع نفسها وتبحث عن علة انصرافه عنها.

ما الذي جعله يزهد فيها؟ وأي عيب نفره منها؟

وتبدأ الهواجس تثير انفعالاتها بعنف!

هل هناك امرأة أخرى طرقت قلبه وأخرجتها منه؟

هل أصيب بضعف جنسي جعله غير قادر على الوقاع؟

هل لم يعد فيها ما يثير غريزته ويدفعه اليها؟

وماذا كان فيها من اثارة وفتون وتجردت منه؟

ألوان من الهواجس والوساوس تكتنفها وتحيل حياتها الى ضباب..

وتمر عليها الليالي بطاء، لأنها لم تعد ليالي امتاع واستمتاع..

وقد يكون الزوج مشغولاً بأمور بعيدة عن تفكير الزوجة وأوهامها..

فليس في حياته امرأة أخرى، كما توهمت زوجته.

ولم يصب بضعف جنسي قضى على رغبته في الوقاع.

ولم تتجرد امرأته من أي فتنة أو اثارة..

ولكن موقفه منها جعلها تسأل نفسها وتجيب بما يصور لها الوهم الشاطح!!

أما بالنسبة للمرأة فانها ان تمنعت على زوجها ثار ثورة عارمة، وفارت قدر غضبه.

فهو لا يفسر تمنع زوجته الا بأنها أما أصيبت بالبرود، وأما تفكر في رجل آخر..

والاصابة بالبرود محتملة ويغتفرها الزوج.

أما التفكير في رجل آخر فأمر لا تحتمله أعصاب الزوج، ولا يغتفره، ولا ينساه!

وحتى أن أرغم زوجته على الوقاع، فانه سيطفيء سعار الغريزة، ولكنه لا يحس بالرضا العاطفي والانسجام المنشود..

وسيكون احساسه أنه اغتصب المتعة اغتصاباً، وانتزعها عنوة، وكأنه اعتدى على امرأة أجنبية!!

ولكن ما أسباب تمنع المرأة؟

انها قد تتمنع دلالاً، لالهاب عاطفة زوجها، حتى يبلغ قمة الاثارة.

أو تتمنع بروداً، لأنها فقدت الرغبة الحسية في الوقاع.

أو تتمنع استقذاراً للقاء الجنسي، وهذه شر أنواع النساء.

أو تتمنع لا دلالاً، ولا بروداً، ولا استقذاراً، وانما تلافياً لما يحدث لها بعد الوقاع من رهق واجهاد..

فالتمنع له أسباب شتى.. وله كذلك عواقب وخيمة..

وأولى بالزوجين أن تسير حياتهما الجنسية في توافق وانسجام.

* * *

ومن الآفات الضارة بالحياة الزوجية أن تنفق الزوجة على زينتها وثيابها ما لا يتفق مع دخل الزوج.. أو يسرف الزوج في تدخين السجائر.. وينسى كل منهما أن التزامات الزواج تفرض عليه أن يقتصد في نفقاته الشخصية..

فالاسلام قد حذر من الاسراف والتبذير، وأمر بالاعتدال في النفقات..

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك، ولا تبسطها كل البسط، فتقعد ملوماً محسوراً »..

والحياة الزوجية اذا هزتها الأزمات المالية، يهرب منها الحب، ويحل محله النزاع، وكل من الزوجين يتهم الآخر بأن تصرفاته هي سبب هذه الأزمات..

وعلاج هذه الآفة أن يقلع كلاهما عن عاداته الذميمة في الاسراف.. وأن يعلم أن الزواج رحلة العمُّر كله.. وهي رحلة تتطلب الصبر واحتمال المشاق.. والتضحية بما يمكن التضحية به من الحاجات غير الأساسية.. وتوجيه الجهد والدخل الى ضروريات الأسرة، وما هي بحاجة اليه..

وتدخين السجائر، وان كان ظاهرة عامة بين كثير من الرجال والنساء، ومظهراً ممقوتاً من مظاهر المدنية، يعتبر هنة هينة اذا قارناه بتعاطي المخدرات..

فالمخدر لا يستهلك ماله فحسب، ولكنه يستهلك عقله وصحته أيضاً.. وما من بيت دخلته المخدرات الا وأصبح خراباً يباباً..

وما من مخدر أنجب للوطن أبناء متعلمين صالحين.. لأن مثلهم الأعلى ـ وهو والدهم ـ يعيش بمعزل عن الوعي، ولا يعنيه من أمر التعليم شيء..

وزوجة المخدر هي أول من يحس آثار الجريمة، ويتحمل تبعاتها.. فهي تعيش مضيقاً عليها في النفقات، لأن المخدرات لا تترك لها شيئاً.. وتعيش في حرمان من الجنس، لأن المخدرات تقضي على عنفوان الغريزة في سن الشباب، وهذا رأي مجمع عليه من الأطباء.

وهكذا فإن آفة الاسراف: اسراف المرأة في زينتها.. اسراف الرجل في تدخين السجائر.. تعاطي المخدرات.. تكتم أنفاس الحياة الزوجية، وتدعها صريعة على أرض الضياع..

* * *

وثمة آفة تصيب الحياة الزوجية اصابة قاتلة، وهي خروج المرأة الى العمل، وحصولها على مرتب..

وسأناقش هذا الموضوع هنا من زاوية المرتب، وأرجيء مناقشته من زاوية العمل الى الفصل القادم.

* * *

باديء ذي بدء أقول: ان الاسلام أباح للمرأة أن تعمل وأن تكسب وأن يكون لها دخل خاص.. «للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن»..

اذن فوجود مرتب أو رزق للمرأة أمر مشروع.. ولا جناع عليها أن تعمل وتكسب..

ولكن السؤال المطروح:

هل يوجب عليها الاسلام أن تسهم في نفقات البيت بجانب من مرتبها، وبخاصة اذا كان مرتب الزوج لا يكفي للانفاق على البيت.. أم أن الاسلام أعطاها حق العمل والكسب، ولم يفرض عليها أن تنفق على نفسها؟

لقد دارت مناقشات بين العلماء حول هذا الموضوع.. والرأي المتفق عليه أن الزوج مكلف بالانفاق على زوجته مهما تكن واسعة الثراء.. والاسلام أوجب عليه ذلك.

ولكن الموضوع الذي نناقشه ليس موضوع نفقة البيت فحسب.. وانما هو موضوع اهمال البيت، وتركه بلا نظافة ولا ترتيب، كما لو كانت الزوجة مستقرة فيه..

فمن الذي يقوم بهذه المسؤولية مكانها؟

الشغالة؟! ان الشغالات أصبحن عملة نادرة، ومن المتعذر الحصول على واحدة منهن الآن!!.. ثم أن مرتب الشغالة يقارب مرتب الزوجة.. فما الفائدة التي تجنيها الزوجة من خروجها للعمل؟

وأبشع من هذا كله أن المرأة اذا أسهمت في نفقات البيت، فإنها قد تمن على زوجها بما تفعل!!

تمن عليه، وهو الذي أعطاها حق الخروج للعمل، وكان بوسعه أن يمنعها، والاسلام يقرر له حق المنع..

والمال الذي تنفقه المرأة في احتياجات البيت يصبح ديناً في عنق الرجل، عليه أن يسدده لها متى أيسر!! هكذا قال العلماء..

ومن العجيب أن كثيراً من الموظفات المتزوجات لا يعلم أزواجهن عن مرتباتهن شيئاً.. وبعض الموظفات يدخرن مرتباتهن في «جمعيات».. ثم يشترين بهذه «الجمعيات» حلياً أو مقتنيات للأبهة والفخفخة..

وكل ما يكسبه الرجل من وظيفة المرأة كثرة شكاواها من الارهاق وتلف أعصابها من مشكلات العمل..

أما مرتبها فهو أما ضائع في زينتها وثيابها، وأما موزع على «جمعيات».. وما تجود به على البيت يصبح ديناً على الرجل..

هل هناك آفة تنخر في كيان الأسرة أشد وخزاً من هذه الآفة؟

انها آفة ذات خطورة وتأثيرها مثل السم الزعاف..

ولكي نضع أصابعنا على مكامن هذه الآفة، ونكشف عن خطورتها، فسنخصص الفصل التالي لعمل المرأة..

المرأة العاملة في ميزان الاسلام

حين نقيس أي أمر من أمور حياتنا بمقياس الاسلام، فإننا نضعه في موضعه الصحيح من الفطرة..

فالاسلام دين الفطرة. وكل ما خالف الفطرة فهو مخالف للاسلام.

فنحن نتزوج، لأننا مفطورون على حب الزواج، وبقاء النوع الانساني، وتلبية نداء الغريزة، وانماء شجرة الانسانية، وتنظيم حياتنا، واكتساب قوة بالأولاد يكونون عوناً لنا على السيرِ في قافلة الحياة والاحياء.

وما من واحد منا الا ويريد لزواجه أن يبقى، وأن يستمر، وأن يثمر، وأن تظلله السعادة، وترفرف عليه الهناءة، وينتشر فيه عبق السكينة والهدوء..

نريد جميعاً أن نعبر بسفينة الحياة الزوجية الى بر الأمان، فلا تهب عليها رياح تنذرها بالغرق، أو تغرقها فعلاً.

نريد أن يقيم كل من الزوجين محكمة في ضميره يحتكم اليها اذا شجر بينه وبين الثاني خلاف.

نريد أن يكون الزواج ابتسامة عريضة على شفتي الزوجين من بدء الخطبة حتى نهاية العمر.

نريد أن يستمريء كل من الزوجين التضحية في سبيل الآخر، وفي سبيل الابقاء على الحب، وأن يرى الحياة الزوجية

زهوراً خالية من الأشواك.

نريد من كل منهما أن يتغاضى ويتسامح ويعفو عن الآخر، وأن يقوم الزواج على الحب والعتاب، لا على البغض والعقاب..

نريد من الزوجة أن تكون أمة للزوج، ومن الزوج أن يكون عبداً لها، ولا يتحقق هذا الا بطاعة كل منهما للآخر طاعة الخادم للمخدوم..

نريد من الزوجة أن تكون حليلة وخليلة ورفيقة وصديقة وعشيقة وأما وبنتاً وأختاً وسكرتيرة خاصة لزوجها، تعاونه على أداء مهامه، وتساعده عى انجاز عمله في حدود طاقاتها ومواهبها وثقافتها..

ونريد من الزوج أن يكون لزوجته حليلاً وخليلاً وعشيقاً ومعلماً ومرشداً وحامياً وأسطورة حب وحنان.. اذا مرضت تكون عنايته بها بلسماً شافياً ودواء ناجعاً.. واذا مستها الكآبة حنا عليها حنو الظل الظليل على السائر في هجير الصحراء..

نقول هذا.. ونحن نتحدث عن المرأة العاملة.. اذا وضعنا خروجها من البيت الى العمل في ميزان الاسلام..

فمن نافلة القول أن نذكر أن الاسلام أباح للمرأة أن تعمل، وأن يكون لها رزق خاص..

ولكنه قيد حرية خروجها للعمل بالضرورة القصوى.

وحين يضع الاسلام قيداً على أمر من الأمور، فإن ذلك لحكمة الهية هدفها صالح الانسان.

والمرأة كانت تعمل في عهد الرسول ﷺ، ولكن في نطاق الأعمال التي تقوم بها النساء، وتحت ظل آداب الاسلام وقيمه . .

فقد كانت تتاجر في الأسواق، وتبيع الطعام، وتعالج المرضى، وتعلم النساء القراءة والكتابة . .

ولم ينكر عليها الرسول ﷺ قيامها بهذه الأعمال . .

كانت « رفيدة » ممرضة تداوي المرضى، وتعالج الجرحى، وتتقاضى أجراً على عملها من القادرين .

وكانت « الشفاء العدوية » مدرسة تقوم بتعليم النساء القراءة والكتابة، وممن علمتهن : حفصة بنت عمر رضي اللّه عنه، وقد أمر النبي ﷺ « الشفاء » أن تعلم حفصة تحسين خطها، كما علمتها القراءة والكتابة .

وكانت زينب بنت جحش تجيد مهنة تصنيع الشيلان « التريكو » . وقد جعلت هذه المهنة مصدر رزق لها بعد موت الرسول ﷺ، ورفضت أن تأخذ نصيبها من بيت المال . وكانت تنفق جزءاً من ربحها على هذه المهنة، وتتصدق بالباقي على الفقراء والمساكين .

* * *

نذكر هذه النماذج لندلل على أن الاسلام لم يحرم المرأة من العمل اذا كان هناك ما يدعو الى ذلك . .

أما أن تخرج المرأة الى العمل، ولدى أبيها أو أخيها أو زوجها أو من يعولها من الدخل ما يكفيها، فهذا ما نود أن نناقشه في موضوعية وأناة . .

إن أربـاب الـدعـوات المسمـومـة الـذين يضمـرون العـداوة للاسلام زينوا للمرأة أن الخروج الى العمل فيه الجنة الموعودة.

فيـه اطلاقهـا من أسار البيت الـذي حبسها الـرجل فيـه مئات القرون!!

فيه تمتعها بالحرية التي حرمتها، واثبات جدارتها ومـواهبها، حتى لا تكون دون الرجل مكانة في المجتمع..

فيه استقلالها اقتصادياً، حيث تحصل على مـا يحصل عليـه الرجال من مرتبات ومزايا..

فيه اثبات ذاتيتها، وتحقيق وجودها، كانسانة تشارك في صنع الحضارة..

وتحت تأثير هذه الدعوات المغرية التي تحمل السم الـزعاف خـرجت المرأة، وزاحمت الـرجال في كـل مكـان.. بـل ان عـدد النساء في بعض المصالح والشركات يزيد على عدد الرجال..

فماذا وجدت المخدوعة، وقد لبت نداء من خدوعها؟

وجـدت نفسهـا في تيـار من المتـاعب لا سبيـل الى وقفـه أو مقاومته..

فهي تهب من نومها مع زقزقة العصافير في الفجر، لكي تتهيأ لمغادرة البيت، والذهاب الى عملها في الموعد المحدد.

وتظل طيلة نهارها تكابـد مشاق العمـل، ثم تعود آخـر النهار مرهقة مجهدة في حالة من الاعياء لا تمكنها من الوفـاء بواجبـات بيتها. وما أكثر وأثقل هذه الواجبات!!

وحين يرى الزوج امرأته على هذه الحالة يستسلم، ويتناول أي طعام يقدم اليه، لأنه لا وقت لاعداد طعام جديد، ولا جهد عند امرأته تبذله في طهي الطعام.

ويجد الزوج أنه متزوج وعزب.. ويتنفس الصعداء.. ويلعن اليوم الذي خرجت فيه المرأة للعمل، ويحس أن الوظيفة اغتصبت زوجته منه، واستلبت معظم حقوقه الزوجية..

وكما أن المرأة تكره أن تدخل امرأة أخرى حياة زوجها، وتنافسها فيه.. فكذلك الرجل.. يكره أن تأخذ الوظيفة زوجته منه، وتصبح عاجزة عن أن توفر الراحة له..

وكيف توفر الراحة لزوجها، وهي عاجزة عن توفير الراحة لنفسها؟

وكيف تمنح زوجها هدوء الأعصاب، وهي نفسها متوترة الأعصاب؟

ان عملها في البيت مشقة ما بعده مشقة..

فلماذا تضيف الى مشقتها مشاق أخرى، والى أعبائها أعباء جديدة؟

انها ان تكن أفادت المجتمع بشيء، فانها أضرته في أشياء تقع منه في الصميم..

سدت أبواب العمل والرزق أمام كثير من الشباب الذين يتطلعون الى الزواج وبناء بيوت..

ولو أنها التزمت وظيفتها الأساسية التي خلقت لها وهي البيت والأمومة ورعاية الزوج والأولاد لوفرت كثيراً من فرص العمل

للرجال، ولأسهمت في حل أزمة المواصلات، ولأبعدت نفسها عن النظرات الخائنة الملتهمة، وكلمات الغزل التي تطاردها في كل مكان. .

وليت المرأة نفسها اكتسبت بخروجها للعمل مزايا تعود عليها بالنفع العميم!

بالعكس. . انها جلبت على نفسها أنواعاً مختلفة من الأضرار. .

أصبحت تصاب مثل الرجال بأمراض العصر: الذبحة. السكر. القلب. وما شابه ذلك من الأمراض التي لم تكن تعرفها جداتنا وأمهاتنا. .

لأنها تتساوى مع الرجل في المتاعب والمشكلات، ولابد أن تقاسمه أمراضه، وتشاركه في موت الفجأة. .

اذ ما من يوم يمر الا والمرأة تواجه ظروفاً عصيبة، سواء من رئيسها اذا كانت عنده عقدة من النساء، أو من زوجها اذا أهملت واجباته.

فالمرأة العاملة اذن مخدوعة مغرر بها.

كانت زوجة قبل خروجها للعمل، تمارس شؤون بيتها فقط. . فأصبحت موظفة تحمل أمانة الوظيفة بمسؤولياتها الجسام.

فمن الذي ظلمها، وغرر بها، وضحك عليها؟

من الذي جعلها تنزل عن عرش البيت ومملكته، وتتعرض

الى ما يجرح حياءها في الأتوبيس والشارع؟

ان الاسلام حفظ لها وقارها، وحدد وظيفتها، وأحاطها بكل ضروب التكريم.

ولكنها ضربت بتعاليم الاسلام عرض الحائط، فلاقت الأمرين في العمل والبيت.

والويل لها ان شغلت وظيفة يحرمها الاسلام.

* * *

فمن مساويء العصر أن لدينا أعمالاً تشغلها بعض النساء، بينما لو عرضناها على الاسلام لرفضها رفضاً باتاً..

وأنا هنا أتكلم عن مباديء، وليس عن أشخاص..

أتكلم عن عمل السكرتيرة مثلاً.. وعلى المتحذلقين والمتحذلقات أن يصغوا جيداً.. وأن يفتحوا عقولهم وقلوبهم وضمائرهم، لأننا نمس موضوعاً له حساسيته..

ففي مكتب كل رئيس عمل الآن سكرتيرة ترتب أوراقه، وترد على مكالماته التليفونية وتساعده في انجاز أعماله..

هذه السكرتيرة فتاة أو امرأة أجنبية عنه.. ولا يجوز اسلامياً أن يخلو بها في مكتبه..

فالرسول ﷺ أعلمنا أنه ما اجتمع رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما.. وحذر من الخلوة بين الرجل والمرأة، وقاية من الشبهات، أو الوقوع في المعصية. فقال في حديثه الشريف: «لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذي محرم»..

ولا يجادل أحد في أن أوضاع السكرتيرات الآن تنطبق عليها الخلوة..

فرئيس العمل يطلب سكرتيرته متى شاء، ولا يملك أحد أن يدخل عليهما الا اذا أذن له..

وهذه الطامة جاءت لنا مع الاستعمار وتقاليده.. والأجانب لا تسمح تقاليدهم بأن يتخذ الواحد منهم له سكرتيرة خاصة فحسب، ولكن تسمح بأن يقبل الواحد منهم زوجة الثاني أو أخته أو بنته البالغة أمامه، ويراقصها، ويغني معها، الى آخر ما نعلمه عنهم، ولا يجدون في ذلك غضاضة، ولا حرجاً، وانما يعتبرونه قمة الحضارة، وذروة التقدم..

وبالتالي فإن كل ما نعده حراماً في شريعتنا وديننا يبيحه الأجانب لأنفسهم.

والاسلام لم يحرم اختلاء الرجل بالمرأة فحسب، وانما حرم مصافحة الرجل للمرأة. فقد قال ﷺ:

« لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له ».

وامعاناً في الوقاية من الوقوع في الفتنة أمر الاسلام النساء بالحجاب، وأن يكن في الصف الأخير من الصلاة، وأن تصفق المرأة اذا أخطأ الامام لتنبهه الى خطئه، وألا تتزين وتتعطر حين خروجها من بيتها، والا كانت فتنة مجسدة، عليها اثمها، واثم من نظر اليها.

كما أمرها الاسلام بألا تخضع بالقول، حتى لا يطمع فيها

مـرضى القلوب، وألا توزع الابتسـامات أينمـا نظرت، وأن تلتـزم الحشمة والوقار في ثيابها وكلامها. .

أين هذا كله من عمل السكرتيرة التي ترى أن وظيفتها تفرض عليها أن تكون رشيقة أنيقة جذابة لافتة للنظر، تتكلم، والابتسامة على شفتيها، وتنتقي أرق العبارات، وألطف الألفاظ في حديثها مع رئيسها وزواره!

وهي بمـا مرنت عليـه من الرقـة واللطافـة والتفنن في اظهـار الأنوثة تجد الطريق ممهـداً الى قلب رئيسها، ليس فيـه عقبات أو عثرات. . وكثيراً ما سمعنا أن مـديراً متـزوجاً وعنـده أولاد، تزوج سكرتيرتـه، أو أن سكرتيـرة دخلت حياة مـديرهـا، حتى أصبحت أثيرة مفضلة عنده على زوجته. .

وهكذا فإن عمل السكرتيـرة لا يقره الاسـلام تأسيسـاً على ما ذكرناه.

* * *

ومن الأعمال التي يحرمها الاسلام كذلك أن تسـافر المـوظفة مع بعض زملائهـا في مهمة تتعلق بـالعمل. . وقد تستغرق المهمة أياماً خارج البلد، والموظفة ملازمة لزمـلائها في الغـدو والرواح، كمـا تبيت معهم في فندق واحـد، وتتنـاول معهم الـطعـام، بينمـا زوجهـا لا يعلم عنهـا شيئـاً، أو هـو آخـر من يعلم، كمـا يقـول المثل!!

فلو عالجنا قضية سفر المرأة من وجهة نظر اسلامية، لوجـدنا أن الاسلام يحرم عليها السفـر الا مع ذي محـرم، حتى ولو كـانت مسـافـرة لأداء الحـج أو العمـرة. . اللهم الا اذا كـانت عجـوزاً

شمطاء، ولا مطمع فيها للـرجال.. وبصحبة رفقة مأمونة..

وليس بوسع أحد أن يقول أن المـرأة معصومـة من الزلـل في شيخوختها.. فـلا يصح أن تسـافر مـع رجال أجـانب عنها، حتى وان كانت طاعنة في السن، ويعلو رأسها المشيب..

يقول المعصوم صلوات اللّه وسلامه عليه:

« لا يحل لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن تسافر مسافـة يوم وليلة الا مع ذي محرم ».

فـإذا كان عمـل المرأة يتنـاقض مع طـاعة اللّه ورسـولـه، فإن عليها ألا تبيع آخرتها بدنياها، لقاء دراهم معدودة وعرض زائل.

ولنا أن نتساءل:

هل الرجل الذي يحب امرأته ويغار عليها، يتـرك لها الحبـل على الغـارب، لتسـافـر كيفمـا شـاءت، وتصحب من أرادت من الرجال؟!

ان الـزوجـة ملكيـة خـاصـة بـالـرجـل.. فكيف يتهـاون في ملكيته، ويفقد احساسه بقدسيتها وجلالها..

لقد كرمه الاسلام بأن أنزله منزلة الشهيد اذا قتـل وهو يـدافع عن امـرأته.. فلمـاذا تغاضى عنهـا وهو يـراها تسعى في منـاكب الأرض في رفقة الرجال؟

إن المـرأة اذا بهرهـا بـريق المنصب فقـد يبهـر نفس البـريق زوجها.. فلا يستحي حين يقال عنه: انه زوج فلانة..

وحينئذ يغمض عينيه ويصم أذنيه.. لا حباً في زوجته، ولكن

حباً فيما أضفته عليه من شهرة ومال . .

* * *

أما الأنوثة ـ وهي رأس مال المرأة ـ فإنها تتلاشى وتضمحل عند المرأة العاملة أسرع مما تتلاشى وتضمحل عند ربة البيت . .

فهي لا تشعر بأن الوظيفة تنقض على أنوثتها فتفتك بها وتمتص نضارتها وتحيلها الى شبه امرأة قبل منتصف العمر . .

فأعصابها الرقيقة لا تتحمل الضغط المستمر . . ونفسها المرهفة لا تطيق المتاعب المتتالية . . وقوامها البض سرعان ما يتغضن، لأنه كالغصن الأخضر، اذا هزته الرياح مرة بعد مرة، لا يلبث أن ينثني ويصيبه الشحوب . .

فلا عجب أن نسمع بعض الأزواج يقولون : إننا تزوجنا خفراء . .

والواقع عكس ذلك . . فقد تزوج أنثى فياضة بالأنوثة . . الا أنها مرهقة بأعباء الوظيفة نهاراً، وبأعمال البيت ليلاً، وليس لديها وقت تنفقه في انماء أنوثتها . . والحفاظ على مفاتنها الفطرية . .

وقد ثبت أن الموظفة الناجحة زوجة فاشلة . .

وأن الزوجة الناجحة موظفة فاشلة . .

ولا يمكن أن تجمع المرأة بين النجاح في البيت والنجاح في العمل . .

وهنا نفهم الحكمة الالهية من قوله تعالى : ﴿وقرن في بيوتكن﴾ . .

فاللّه قد جعل للمرأة وظيفـة اذا حادت عنهـا أصبحت لا هي امرأة ولا هي رجل . .

وما ظلمها أحد، ولكن ظلمت نفسها بنفسها . .

فقد أنصفها الاسلام، ولكنها لم تـرض بهذا الانصاف .

كيف أنصف الاسلام المرأة

انصاف الاسلام للمرأة هو عملية بعث واحياء لها، لكي تنعم بالحياة، وتنتعش روحها، وتتنفس الهواء الطلق، وتتمتع بالدفء والجمال من حولها، وتسهم في بث الدفء ونشر الجمال حولها. وتعانق بأشواقها مواكب الحياة.

فأين كانت في الجاهلية، وكيف صارت في الاسلام؟

كانت ترسف في أغلال المهانة والاستعباد. تورث ولا ترث. يزوجها أهلها، دون أن تعلم من الذي ستتزوجه. تعيش كالأمة لا رأي لها ولا حقوق. ينظر اليها الرجل على أنها مخلوقة لأمتاعه ليس الا. هذا اذا كتبت لها الحياة. فقد كانت بعض القبائل تئد الطفلة، خوفاً من العار، وكان الرجل يسود وجهه من الخزي اذا علم أن امرأته وضعت أنثى..

ومع البعث الذي أيقظ به الاسلام الانسانية الغافية في أحضان الجاهلية، والبشرية التائهة في ضباب الوثنية، حظيت المرأة بأوفى نصيب من الحقوق والمزايا والمنح. وانزاح عنها ركام الذل والهوان، فخرجت لتشارك بجهدها في مسيرة الحياة والأحياء.

أنصف الاسلام المرأة انصافاً بعيد المدى جعلها فيما بعد وزيرة ومديرة وأستاذة في الجامعة وصاحبة قلم وبيان.

ولم يكن انصاف المرأة مجرد تشريعات جاء بها الاسلام..

وانما جسد النبي ﷺ هـذه التشريعـات في سلوكه الكـريم. . فقد كـان في بيته زوجـاً مثاليـاً، ووالداً عـطوفاً، ورب أسـرة رحيمـاً، وأعلى مثال للمعاملة الطيبة والعشرة الحسنة. .

وصفته السيدة عائشة رضي اللّٰه عنها بأنه كان اذا خلا بنسائـه ألين الناس، وأكرم الناس، ضحاكاً بساماً، وكان يقم بيته، ويرفـو ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته. .

وكـان حبه لبنـاته يفـوق كل تصـور. . اذا رأى فـاطمـة مقبلة يتهلل وجهـه، ثم يقوم من مجلسـه، ويستقبلها بقبـلاته وحنـانـه، ويجلسها بجانبه.

وكان يحمل أمامة بنت زينب، وهي طفلة، أثناء صلاته. فاذا سجد وضعها، واذا قام رفعها.

وكان يحث الآباء على اكرام بناتهم، لأن اكـرام البنت طريق يؤدي الى الجنة. فهو القـائل في حـديثه الشـريف: من كانت لـه أنثى، فلم يئـدهـا، ولم يهنهـا، ولم يؤثـر ولـده عليهـا أدخله اللّٰه تعالى الجنة.

هذا الحديث يحمل ثلاثة أمور:

الأول: عدم وأد البنت.
الثاني: عدم اهانتها.
الثالث: عدم تفضيل الولد عليها.

لأن تفضيل الولد على البنت عادة من عادات الجاهلية. وكان الرسول ﷺ يريد أن يستـأصل هـذه العادات من النفـوس، ويحل

محلها قيم الاسلام. ومن أبرز هذه القيم: العدل في معاملة الأولاد.

وكأني بالرسول ﷺ ينظر الى خريطة المستقبل، فيرى بعض الآباء وقد فضلوا الذكور على الاناث، وبعض الأخوة، وقد جاروا على حقوق أخواتهم في الميراث. فوضع هذه القاعدة الشرعية، ليدفع الظلم عن الاناث.

ثم يوضح أنه لا أفضلية للذكورة على الأنوثة في مجال الفطرة الانسانية، بل أن النساء أولى بالأفضلية لو كان ثمة مجال للمفاضلة. يقول في حديثه الشريف:

« ساووا بين أولادكم في العطية. فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء ».

ويوضح الرسول ﷺ أن معادن الرجال تتكشف وتتضح من أسلوب معاملتهم للنساء.. فيقول: « ما أكرم النساء الا كريم، ولا أهانهن الا لئيم ».

ثم يضرب المثل بنفسه في حسن معاملة أهله. ويحث أصحابه على أن يقتدوا به، فيقول: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي ».

ويحذرنا من ظلم المرأة، حتى لا نتعرض لغضب اللّٰه، فيقول:

« إن اللّٰه يغضب المرأة اذا ظلمت، كما يغضب لليتيم ».

ويبين لنا أن الدفاع عن المرأة يوجب الشهادة لمن يقتل، وهو يذود عنها.. فيقول:

« ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » .

ثم يكشف لأبصارنا وبصائرنا عن مبدأ انساني رفيع، وهو الآصرة الأبدية التي تربط بين الرجل والمرأة، اذ خلقا من نفس واحدة. . فيقول: « النساء شقائق الرجال » . . فالمرأة أخت الرجل: روحاً وقلباً وأحاسيس ومشاعر ورغبات ومطامح.

* * *

كل هذه مبادىء عامة وضعها الرسول ﷺ، ليحرر المرأة من أسار الذل والهوان، ويخرجها كاللؤلؤة من صدفتها، لا يساوم عليها الرجال، ولكن يأخذونها بكلمة اللّه.

ولأول مرة تحس المرأة العربية أنها أصبحت ذات كيان وشخصية مميزة، ولم تعد تلك المخلوقة التي يتخذها الرجل متنفساً لغريزته، وطاهية لطعامه، وغاسلة لثيابه. . ومربية لأولاده.

لم تعد أمة مسلوبة الارادة والكرامة، وظيفتها امتاع الرجل فحسب، وانما أصبح من حقها أن تنال حظها من التعليم، ومن كل الحقوق التي ظفر بها الرجل أحقاباً دون أن ينافسه فيها أحد.

واذ خامر المرأة هذا الاحساس فانها لم تجد حرجاً في أن تطلب من النبي ﷺ أن يكون لها حظ من العلم، ونصيب من الثقافة مثل الرجال.

ذهبت اليه احدى النساء وقالت له: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك نأتيك فيه تعلمنا مما علمك اللّه.
فقال: اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا.

وبعدها بدأ الرسول يعقد مجالس خاصة للنساء.

كانت النساء حريصات على حضور مجلس الرسول ﷺ، وكن يتنافسن في فهم الاسلام، ويجتهدن في التفقه في الدين. وكان النبي ﷺ يفتيهن في كل شيء.. حتى استنارت بصائرهن، واستضاءت أذهانهن بما تلقينه على يد الرسول.

وأصبحت المدرسة النبوية يتخرج فيها النساء، كما يتخرج فيها الرجال، وانتقل المجتمع الأمي على يد النبي الأمي الى أعلى درجات العلم والمعرفة.

ولم يكن النبي ﷺ معنياً بتعليم النساء عن طريق التلقين والتلقي فحسب، وانما كان معنياً كذلك بتعليمهن القراءة والكتابة، وتحسين الخط. فحين تزوج صلوات اللّه وسلامه عليه حفصة بنت عمر، وكانت تعلمت القراءة والكتابة على يد الشفاء بنت عبد اللّه العدوية، طلب النبي من الشفاء أن تعلمها تحسين الخط.

والى هذا الحد كانت عناية الرسول بتعليم النساء.

واضافة الى ما سلف فإن الرسول ﷺ كان يشجع المواهب في النساء، ومما يذكر عنه في هذا المجال أنه كان يستنشد الفارعة بنت أبي الصلت شعر أخيها أمية، كما يستنشد الخنساء شعرها، ويقول لها: هيه.. هيه يا خناس..

والى جانب تشجيع المواهب النسائية في الأدب، فانه كان يشجع تعليم الطب، لتقوم المرأة بعلاج المرأة، أو بعلاج ذوي محارمها من الرجال. فقد سمح لرفيدة وهي أول ممرضة في الاسلام، أن تنصب خيمة في المسجد لمداواة المرضى، وتعليم نساء الصحابة كيف يداوينهم.

وبهـذا الأسلوب العلمي تعلمت نسـاء كثيـرات وسـائـل الاسعاف والعلاج، وكن يذهبن مع المجاهدين الى ميـادين القتال لتضميد الجراح ووقف النزيف. ومن ثم نشأت فكرة المستشفيات الميدانية في الحروب الحديثة.

وقد تخرج في مدرسة الرسول فقيهـات ومتفقهات. منهن من كانت تروي أحاديث الرسول. ومنهن من حفظت القـرآن. ومنهن من درست أحكام الاسلام. . حتى ان امرأة من عامة الناس وقفت تقارع عمر بن الخطاب الحجة بالحجة حين طالب بعدم المغـالاة في المهـور. ولم يجد عمـر بداً من أن يعـدل عن رأيه، ويقـول: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

وهكـذا أتاح الـرسول ﷺ للمـرأة أن تتعلم وتستنيـر وتنـافس الرجال في حفظ القرآن، ورواية الحديث، وفهم أحكام الفقه. .

* * *

وكما أعطى الاسلام المرأة حق تحصيل العلم، فإنه أعطاهـا حق اختيـار زوجها، وحق الانفصـال عنه اذا أسـاء عشرتهـا، ولم يفرض عليها أن تعيش مع زوج، وهي كارهة له.

ولكن الاسـلام حذر المـرأة من أن تطلب الـطلاق لهـوى في نفسها، والا حق عليها غضب اللّٰه، لأن الدين كما أمر الزوج بـأن يتريث ويتمهل ويتأنى ويتروى قبل أن يقرر الانفصـال عن زوجته، فكذلك أمر المرأة بأن تفكر في بيتها وأولادها وما قد يتعرضون لـه من متاعب ومشكلات، وبخاصة اذا كـان الأولاد في سن الطفـولة أو المراهقة.

وكذلك أعطى الاسلام المرأة حق العمل، ولكنه لم يأمر به،

وانما وضع له شروطاً وقواعد وآداباً، وبين ما فيه من نفع وما يجر على المرأة من اثم. ولا شك أن اثمه أكبر من نفعه. وقد بينا فيما سلف الأضرار التي تعود على الزوج والأولاد والزوجة نفسها بسبب خروجها للعمل، وهي في غنى عنه، وبيتها بحاجة اليها.

ولكن بعض النساء يعشقن العبودية ويفضلنها على الحرية. فالمرأة في بيتها في اجازة مفتوحة، تخلد الى الراحة اذ أحست بالتعب، وتؤدي العمل الذي ترغب فيه، ووقتها ملك يديها. لا تستأذن أحداً في الخروج الا زوجها، ولا تبتلي برئيس يعبس في وجهها، لأنها تأخرت عن موعد العمل، أو أخطأت في أدائه. ولا تجد زميلة تغتابها، وتطعنها من الخلف، ولا تعاني من متاعب الذهاب الى العمل والعودة منه. وهي في بيتها ملكة غير متوجة. . أما في العمل فتتساوى مع من دونها تربية وخلقاً في الوظيفة.

ونمضي مع انصاف الاسلام للمرأة فنجده خصص لها نصيباً في الميراث. فهي تأخذ نصف أخيها في التركة، وتأخذ من زوجها كل ما تحتاج اليه من النفقات، وبذلك يكون حظها أوفى من حظ الرجل. كما أن الاسلام أوجب على ولي أمرها رعايتها طفلة وصبية وشابة. ورفع مقام الأمومة فوق كل مقام.

* * *

ومن إنصاف الاسلام للمرأة أنه جعل انفصال زوجها عنها على مراحل، حتى تكون لديه فرصة سانحة في مراجعة نفسه، ومعالجة الخلاف الذي شجر بينه وبين زوجته. فالروابط الأسرية مقدسة في نظر الاسلام. ولا يصح في لحظة غضب من الزوج أن

يمزق هذه الروابط، ثم يندم على ما فعل. ولذلك منحه الاسلام فرصة المراجعة مرتين، ثم يكون الطلاق نهائياً بعد المرة الثالثة.

ومع ذلك فإن العشرة اذا استحالت بين الزوجين، فإن الاسلام يعطي الرجل حق تسريح زوجته باحسان، أي يتم الانفصال بطريقة كريمة بعيداً عن الاهانات والمساءات وجرح الشعور..

وللمرأة نفس هذا الحق. فهي غير مكرهة على الحياة مع رجل يهنيها ويسيء اليها. ومن حقها أن تطلب الطلاق وتجاب الى طلبها، أما أمام مجلس يمثل فيه واحد من أهلها وواحد من أهل زوجها، اذا تعذر الصلح بينهما، وأما أمام المحكمة..

وأكثر من ذلك فإن الاسلام أعطاها حق « الخلع » بضم الخاء. فاذا وجدت نفسها كارهة الحياة مع زوجها لأسباب لا يمكن علاجها، كعيب فطري في الرجل، أو في أسلوب تعامله معها.. فمن حقها أن تعطيه الصداق الذي قدمه اليها، وتخلع منه.

ولكن الاسلام لم يترك أمر الزوجية للعبث والهوى والنزوة. فقد حذر المرأة من أن تطلب الطلاق، وحياتها مستقرة مع زوجها، لأنها تريد أن تتزوج رجلاً آخر..

هنا يؤكد الاسلام أن مثل هذه المرأة ستنصب عليها لعنات السماء.

ونشير في هذا المجال الى حديث للرسول ﷺ يقول فيه:

« ليس منا من حبب امرأة على زوجها »: أي أفسدها،

وحبب اليها كراهة الزوج . .

ولعل هذا لا يحدث الا اذا كان هناك اختلاط، وكشفت الزوجة لمن تحدثه عن أسرار زوجها، وذكرت عيوبه ونقائصه . . هنا يتدخل شيطان الأنس هذا، ويسول للزوجة أنها لو تركت زوجها، فسوف تجد من هو خير منه . وقد يعدها بالزواج، وهي في عصمة زوجها، لينال منها ما يريد، ثم يلفظها لفظ النواة.

ولذلك حرم الاسلام على المرأة ألا تختلط أولاً برجل غير ذي محرم . . وألا تبوح بأسرار زوجها، حتى لا تعرض حياتهما للأقاويل، وحتى لا تجلب على نفسها كراهية زوجها، اذا نمى الى علمه أن أسراره مضغة في الأفواه.

وبهذا المنهج الالهي عالج الاسلام قضية الخلافات الزوجية، ورفع الزوجة التي تصبر على شظف العيش مع زوجها، وتهون عليه متاعب الحياة، وتحفظ عرضها وشرف زوجها، وتطيعه فيما أمر اللّه به . . رفعها الى مرتبة القديسات.

* * *

ومن أنصاف الاسلام للمرأة أنه أراحها من عناء الحوار الداخلي بينها وبين نفسها . كانت تشعر بوطأة الظلم وفداحته، ولا تملك شيئاً الا أن تحاور نفسها : كيف أتخلص من طغيان الرجال، ومتى؟ . . وهل يأتي اليوم الذي أحطم فيه أغلال المهانة والذل عن نفسي؟ . . وما السبيل الى خروجي من هذه الغاشية التي تجعلني لا أستطيع أن أبصر نور الحياة، وجمال الكون!!

كانت المرأة دائبة الحوار مع نفسها، ولكنها لا تستطيع أن

تنبس بكملة واحـدة، ولا أن تشارك بـرأي، وظلت هكذا مكبـوتة حتى أعطاها الاسلام حق الاعـراب عما في نفسهـا، وأن تقول مـا شاءت في حدود الأدب والخلق الكريم. .

بل ان الاسلام أعطى النساء حق الاجتمـاع لبحث شؤونهن، وعـرضهـا على المسؤولين من الـرجـال، وأن يكـون الحـوار بين الـرجال والنسـاء متصلاً ومستمـراً، لكي تمضي الحيـاة في اطـار المحبة والمودة والألفة بين الجنسين. .

* * *

كأني بالنساء وقد اجتمعن في شبه مؤتمر وتدارسن شؤونهن، وتبادلن وجهات النظر فيما فضل اللّه به الرجال على النساء. وكان من رأيهن أن المهمـة العـظمى التي يقمن بهـا لا تقـل عن مهـام الرجال بحال من الأحوال. . ومـع ذلك فـإن الرجـال أسعد حـظاً منهن.

قـالت احداهن: ان الـرجـل مفضـل علينـا في الخـروج الى صلاة الجمعة وصلاة الجماعة، والاستئثار بثواب صلاة الجماعة، وهو يزيد على ثواب صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.

وقالت الثانية: عندك حق. . ان الرسول ﷺ علمنـا أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من أن تخرج الى الصلاة في المسجد.

وقالت الثالثة: ولكنه قال للرجـال: لا تمنعوا امـاء اللّه بيوت اللّه. .

وقالت الرابعة: والرجال ليسوا مفضلين علينا في الخروج الى صلاة الجمعة وصلاة الجماعة فحسب، ولكنهم يتمتعون بحريتهم

في شهود الجنائز وعيادة المرضى وأداء فريضة الحج المرة بعد المرة.

وقالت الخامسة: أقول لكن الحق. ان الاسلام كرمنا وأعزنا وفرض لنا حقوقاً. وكانت الواحدة منا لا قيمة لها، لا عند أهلها، ولا عند زوجها. . بل كان الرجال يدفنوننا ونحن على قيد الحياة.

وقالت السادسة: كل هذا نعلمه جيداً. ولكن نريد أن نأخذ أجراً كأجر الرجال.

وقالت السابعة: نسيتن شيئاً مهماً، وهو أن الرجل يجاهد، وينال أجر الجهاد، ونحن ضعيفات لا نستطيع القتال، ولا بوسعنا أن نقاتل.

وقالت الثامنة: ولكننا نجاهد في بيوتنا من أجل توفير الراحة للرجال، وتربية الأولاد، وحفظ أموال أزواجنا وهم غائبون. .

وقالت التاسعة: اذن. . ماذا نفعل؟

وقالت العاشرة: تذهب واحدة منا الى الرسول، وتعرض عليه ما يشغل بالنا، وما يقلقنا، ونفكر فيه. .

وقالت الحادية عشرة: ان أذنتن بأن أكون سفيرة لكن الى الرسول فعلت. .

النساء: اذهبي بارك الله فيك.

* * *

كانت السيدة التي تطوعت بالذهاب الى الرسول ﷺ هي أسماء بنت يزيد الأنصارية. وكانت معروفة بطلاقة اللسان،

وفصاحة البيان، ونصاعة الحجة.

خرجت تغذ الخطى الى الرسول ﷺ، ورأسها مزدحم بشتى الخواطر، وصدرها ممتليء بضروب المشاعر، ونفسها مائجة بينابيع الأحاسيس.

كانت طوال الطريق تفكر فيما عسى أن تقول للرسول، وكيف تبلغ الرسالة التي حملتها.

وما أن وصلت اليه حتى وجدته بين أصحابه تتغشاه الجلالة والمهابة. فاستجمعت شجاعتها وقالت له:

بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه. أنا وافدة النساء اليك. ان اللّه عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة. فآمنا بك وبالهك. انا معشر النساء محصورات، مقصورات، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم. وانكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل اللّه عز وجل. وان أحدكم اذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وربينا لكم أولادكم. أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟.

فالتفت النبي ﷺ الى أصحابه بوجهه كله. ثم قال:

« هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟ ».

فقالوا: يا رسول اللّه. ما ظننا أن امرأة تهتدي الى مثل هذا.

فالتفت النبي ﷺ اليها فقال: « أفهمي أيتها المرأة، واعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها

مرضاته، وأتباعها موافقته، يعدلَ ذلك كله ».

رجعت المرأة الى النساء تزف اليهن هذه البشارة، وكن لم يبرحن مكانهن، فامتلأت نفوسهن غبطة وحبوراً، وانصرفت كل منهم الى بيتها عازمة على الاستماتة في خدمة الزوج، حاشدة كل طاقاتها للظفر بمرضاته، مجندة كل حواسها للعناية به، لا يلتفت قلبها الى غيره، ولا تنتفض مشاعرها لسواه.

* * *

ومن انصاف الاسلام للأنثى أنه احترم نداء قلبها، وأعطاها حرية الزواج بمن تحب.

فقد جاء رجل الى رسول اللّٰه ﷺ وقال له: عندنا يتيمة خطبها رجلان. أحدها موسر، والثاني معسر. ونحن نريد أن نزوجها الموسر، وهي تريد أن تتزوج المعسر. فقال له الرسول ﷺ:

« لم ير للمتحابين مثل الزواج ».

اذن فثروة العواطف أغلى من ثروة المال، ورصيد المحبة أثمن من رصيد الذهب والفضة..

والحب أصدقه ما كان تمازجاً بين روحين، وتلاقياً بين قلبين، وتعانقاً بين نفسين.

وكما أن الرسول ﷺ حبذ زواج المتحابين، فانه جعل زواج البكر باطلاً اذا تم بدون ولي وشاهدين، حتى لا تتمرد فتاة على أهلها، وتثير حول نفسها وحول أهلها الشائعات والأقاويل، وتحدث فوضى في المجتمع، وتفكك في الأسر.

فالاسلام وهو يمنح الحرية يحوطها بالضمانات التي تصونها من الشطط، وتحفظها من الجنف. ولذلك حظر زواج السر، وجعل الاعلان ركناً أساسياً في الزواج.

يقول ﷺ:

« أعلنوا الزواج بالدف ».

لأن اعلان الزواج معناه ميلاد أسرة جديدة، ووضع لبنة جديدة في صرح المجتمع. وهو عمل تباركه السماء، لأنه أساس عمران الكون، ودليل على التمسك بكلمة اللّه، وتطبيق لسنة الرسول..

والمرء لا يخفى شيئاً الا اذا كان معيباً وباطلاً وغير مشروع..

فالجرائم ترتكب في السر، ولا يجاهر بها الا من سقط في حضيض الوقاحة وعدم الحياء.

والذين لا يعلنون عن زواجهم لابد أن فيه شيئاً ينكره الدين، أو يمتعض منه المجتمع..

كأن يتزوج الرجل امرأة لأجل محدود.. وهو زواج المتعة.. وزواج المتعة محرم في الاسلام.

أو يتزوج امرأة زواجاً عرفياً، خشية أن تعلم زوجته وأولاده..

وكم فجر الزواج العرفي من ويلات ومشكلات..

وبالنسبة لزواج المتعة فإن الاسلام حرمه، حرصاً على كرامة المرأة، حتى لا تصبح سلعة يستمتع بها كل من شاء، ويطلقها

متى شاء، ويتداولها الرجال، دون أن يشعر أحدهم نحوها بعاطفة حب، وان كان بعضهم يشعر نحوها بعاطفة اشفاق..

ماذا تريد المرأة بعد هذا من انصاف؟

انها أخذت كل ما يأخذه الرجل من حقوق ودرجات في الدنيا والآخرة.

وأحاطها الاسلام بهالة من الحب والاعزاز والتكريم..

ولو راحت تبحث عن حقوق أخرى لأعياها البحث، ورفعت راية التسليم والاستسلام..

الزواج من غير المسلمة مباح . . ولكن!!

هناك مأثورة تقول: « الضرورات تبيح المحظورات » . وإباحة شيء محظور معناها ممارسة عمل يفعله الانسان مضطراً، لأن البديل الطبيعي غير مهيأ أو متاح .

فالطيار قد يهبط هبوطاً اضطرارياً في مطار غير المطار الذي يقصده، لوجود خلل مفاجيء في الطائرة .

والمقاتل في الصحراء قد يضطر لتناول لحم الحصان اذا لم يجد غيره في ميدان الحرب .

والأعرج قد يركب رجلاً صناعية ليسير عليها . .

والأعمش قد يلبس منظاراً ليساعده على الرؤية . .

وهكذا . . فإن الانسان يستعمل البديل اذا فقد الأصلي . أما أن يؤثر البديل على الأصلي، فهذا ما سوف نناقشه مناقشة موضوعية في اطار قيم الاسلام وآدابه، بالنسبة للزواج .

فإذا كان المسلم يعيش في مجتمع اسلامي يزخر بالفتيات العفيفات الشريفات . . فلماذا يعدل عن الزواج باحداهن، ويتزوج فتاة غير مسلمة؟!

لماذا يترك الأصلي ويلجأ للبديل؟

لابد أن هناك خللاً في عقيدته، وتصدعاً في ايمانه . .

لأن الاسلام حث على الزواج من ذات الدين، وفضلها على

سـواهـا من النسـاء. وحث أيضـاً على زواج الـرجـل المتـدين، ووصف رفضه بأنه فتنة وفساد كبير. .

فإذا كان من غير المستحب أن يتزوج المسلم فتاة غير ملتزمة بآداب الدين، مع أنها شريكته في العقيدة والايمان، فكيف يسوغ له أن يتزوج فتاة غير مسلمة على الاطلاق؟!

إننـا لا ننكر أن الاسلام أباح زواج المسلم من كتابيـة، وحـرم الزواج من مشركة. .

ولكن الابـاحـة يجب ألا تستخـدم الا في حـالـة الضـرورة القصوى. كأن يكون المسلم في بلد أجنبي مثلاً، ويتعذر عليه أن يجد فتاة مسلمة. . ويريد اعفاف نفسه بزواج مشروع. .

هنا يلجأ للبديل، لأن الأصلي غير موجود. .

والفتاة التي تقبل الزواج من رجل على غير دينها، لا شـك أنها فتاة غير سوية، وغير متمسكة بدينها. . انها تريد زوجاً فحسب. . أي زوج!!

فهي تعلم أن زوجهـا المسلم يختلف عنهـا ديـانـة وعقيـدة وعبـادة، ولن يشاركهـا في أعيادهـا، وهي كذلـك لن تشاركـه في عبادته ولا في أعياده.

فمثـلاً يأتي شهـر رمضـان، ويصـوم الـزوج، بينمـا الـزوجـة مفطرة. .

وتدخل مواعيد الصلاة، فيقوم الزوج لأدائها، والزوجة تتفرج عليه.

وتـأتي الأعياد، فـلا يعم السرور كـل البيت، لأن الـزوج في

واد، والزوجة في واد آخر!!

ثم تأتي مشكلة تربية الأطفال..

الأطفال أقرب الى الأم منهم الى الأب في سن الطفولة.. فتلقنهم في غيبة الزوج عن البيت، طقوس دينها، وقد تبغضهم في الاسلام.. والأب في غفلة عما يحدث لأولاده.. فإذا أحس منهم ميلاً الى دين أمهم، فإنه يقع في مأزق شديد، لأن تصحيح عقيدتهم سيكون أمراً بالغ الصعوبة، وبخاصة اذا كانت الأم متعصبة لديانتها..

كما أن الزوج لن يأكل مما ذكر اسم اللّه عليه، لأن الزوجة لن تنطق بالبسملة، وهو بهذا يخالف ما شرع اللّه.. مخالفة يعرف أسبابها..

* * *

ومن مساويء الزواج بغير المسلمة.. احداث أزمة في سوق زواج الفتيات المسلمات.. واقامة أسر، لا هي مسلمة، ولا هي غير مسلمة..

وقد فطن الى هذا عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.. فشدد النكير على من يتزوج فتاة من غير دينه، مهما يكن منصبه في الدولة..

وموقفه من حذيفة بن اليمان، وهو من أجلاء الصحابة، يشهد بحزم عمر في علاج هذه القضية..

فحين علم عمر أن حذيفة تزوج احدى بنات اليهود، وكان اذ

ذاك والياً على المدائن، بعث اليه كتاباً يقول له فيه: أطلق سراحها.

ولم يكن حذيفة جاهلاً بمبادىء الاسلام، فقد تعلم مثل عمر على يد الرسول ﷺ، وكان يعلم أن زواج المسلم مباح من الكتابيات.

ولذلك لم يتوان في الرد على أمير المؤمنين..

قال في رده: أهو أمر اللّه، أم أمر أمير المؤمنين؟

ولما وصل الرد الى عمر بن الخطاب، شرح له وجهة نظره في زواج المسلم من غير المسلمة.. قال له: اذا تزوجتم بنات الافرنج، فمن للمسلمات المؤمنات؟! ان فيهن خلابة. وقد يغلبنكم على نسائكم..

وحين قرأ حذيفة الرد قال: الآن..

يعني الآن فهمت مقصود أمير المؤمنين. ثم طلق زوجته اليهودية..

وهكذا كان عمر يتعامل مع أي مسلم يتزوج فتاة أو امرأة من غير دينه.

لأنه كان يريد مجتمعاً اسلامياً خالصاً من أي شائبة..

فالمجتمع مجموعة من الأسر. ولابد أن تكون هذه الأسر مسلمة مائة في المائة.

وأنا لا أتصور كيف يعيش زوجان مختلفان في الدين والعقيدة تحت سقف واحد!!

لقد تكون الزوجة طاعمة في بيت أهلها لحم الخنزير، ومحبب اليها طعمه ومذاقه، بينما هو محرم في الاسلام، وتجلبه الى بيتها دون علم زوجها.

وقد تكون معتادة شرب البيرة على الطعام، أو احتساء الخمر مع الصديقات.. فتحول عش الزوجية الى خمارة أو مكان للمسكرات..

وتربيتها على السفور والتبرج والزينة ستظل أساس سلوكها، فلا تلبس زياً محتشماً، ولا ثوباً وقوراً. بل تكره كل امرأة تتمسك بالحجاب..

وإذا أنجبت بنتاً أو عدداً من البنات فستنشئهن على نفس التقاليد التي نشأت هي عليها.. ضاربة بتقاليد زوجها عرض الحائط.

فأي بيت هذا الذي تتضارب فيه العقائد، وتتطاحن التقاليد، وتتصارع الأخلاق؟

وأي زواج هذا الذي يعيش فيه الزوجان على طرفي نقيض؟

وأي أسرة تلك التي لا يحس فيها الزوج السكن، ولا تشعر فيها الزوجة بالأمان؟!

ان كلا منهما لا شك نادم على ما فعل.. ولكن بعد أن أصبح البيت يضج بالأولاد..

واذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب، فانه حرم على المسلمة أن تتزوج رجلاً من غير دينها تحريماً باتاً قاطعاً، وأدخل من تفعل ذلك في عداد الكافرات.

وكذلك حرم الاسلام على المسلم أن يتزوج امرأة تقول بأن اللّه ثالث ثلاثة. . لأن هذا شرك. وزواج المشركة محرم في الاسلام.

وقد قال عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما: «لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها عيسى».

وعلى هذا فان المسلم الذي يريد أن يتزوج امرأة غير مسلمة. . عليه أن يضع كل هذه الاعتبارات نصب عينيه، قبل أن يندم، ولا يجدي الندم.

عفواً أيها الأزواج والزوجات

لا يسعني وأنا أفرغ من هذا الكتاب، وأضع القلم من يدي، الا أن أقول:

عفواً أيها الأزواج والزوجات..

فقد يحس أحدكم بعد قراءة الكتاب بغصة في حلقة، لأنه تجانف عن منهج اللّه، وظلم زوجته، وجنى على أولاده.

وقد تشعر احدى النساء بأنها أغضبت ربها، واستوجبت لعنته ولعنة ملائكته، لأنها عبثت بالرباط المقدس.

وأنا مثلكم خضت تجربة الزواج علماً وعملاً وسلوكاً..

وأضفت الى شجرة الانسانية كما أضفتم..

وأردت أن أقطع رحلة الحياة، وفي يدي نبراس يضيء لي الطريق، ويضيء لكم أيضاً، حتى لا تزل أقدامنا، ولا تتوه قوافلنا.. فكل من الزوج والزوجة له دوره ووظيفته في تهوين مشاق الطريق.

وما أردت بهذا الكتاب الا أن أوضح مفاهيم عن الزواج من وجهة نظر الاسلام، في حدود فهمي وثقافتي وتجاربي.

وقد أجبت عن سؤال مطروح.. وهو: لماذا نتزوج؟

طرحه المتزوجون والعزاب على السواء..

فهناك من يتزوج، ولا يشعر برونق الحياة الزوجية وبهائها،

أما لعيب فيه، أو في زوجته، أو تناقض بينهما في الطباع، فيصرخ من أعماقه: لماذا نتزوج؟!

وهناك من يصدف عن الزواج صدوفاً تاماً، ويؤثر العزوبة. وإذا نازعته نفسه الى الزواج، وضيقت عليه الخناق، تنفس الصعداء وتنهد وقال هامساً: لماذا نتزوج؟.. وماذا فعل المتزوجون؟ هل وجدوا الراحة التي ينشدونها في الزواج؟..

بيد أنني أقول لكل من يئن من الزواج، أو يعرض عنه: لقد أخطأت الفهم والطريق، وسبحت في بحر الحياة ضد التيار..

انك اذا وضعت في كهف مظلم لا تدخله الشمس، ولا الهواء الطلق، فسوف تموت موتاً بطيئاً، دون أن تشعر بتسلل الحياة منك..

وكذلك الحياة الخاوية الفارغة من الزواج والأسرة والأولاد..

صاحبها تنكر لشجرة الانسانية، واستمرأ أن يكون هشيماً تذروه الرياح، بدلاً من أن يكون غصنا مورقاً يزدان بالثمار..

فإذا سأل سائل: لماذا نتزوج؟ نقول له: ان الحياة بدون زواج تكون كالقلب بلا نبض، وكالجسد بلا روح، وكالشجرة بلا ثمر، وكالأرض بلا نبات، وكالسماء بلا نجم، وكالصدفة بلا لؤلؤة، وكالزهرة بلا عطر، وكالقيثارة بلا نغم، وكالصورة بلا ملامح.

واذا قال: ما دام الزواج بهذا الجمال، فلماذا ينفصل بعض الأزواج ولا يلتحمون، نقول له:

ان المزكوم لا يستطيع شم العبير، لأن حاسة الشم عنده معطلة.

والأعمى لا يبصر النور، لأنه فقد نعمة البصر والرؤية.

والأصم لا يطرب لسماع الأغاني الشجية، لأن في أذنيه وقراً.

والمريض لا يتذوق أشهى الأطعمة، لأن مرارة المرض ذهبت بحلاوة الطعام..

فإذا رأيت زوجين يتعاميان عن رونق الحياة الزوجية، فاعلم أنهما ذوا نفسين مريضتين، وذوا مزاجين منحرفين.

ولذلك عالج الاسلام مرض النفوس بالانفصال جرعة بعد جرعة.. ولم يستأصل الحياة الزوجية من جذورها للوهلة الأولى، عسى أن يفيد الدواء المتكرر مرتين.

ولو قارنا عدد حالات الزواج الشقي بعدد حالات الزواج السعيد لوجدنا النسبة قليلة ضئيلة هزيلة.

اذن فإن الأغلبية هي التي تزود شجرة الانسانية بالنماء والازدهار.

وما على شجرة الانسانية أن يكون بعض غصونها بلا أوراق ولا ثمار..

وفق اللّٰه المتزوجين الى حياة أنبل، ومعاشرة أكرم، ومعاملة أطيب.

ووفق العزاب الى النهوض من غفوتهم، ليلحقوا بقافلة المتزوجين.

